الفصل الاول

دور التدلي والانحطاط ١٥٦٦ — ١٦٤٠

انعكاس الآية ـ اسباب الانحطاط ـ سليم السكير ـ صقلي محمد ـ سنان باشا ـ الحملة على استراخان ـ الاستيلاء على قبرص ـ موقعة ليبنتو ـ الدون جون النمسوي ـ أولوج علي ـ الصلح مع البندقية ـ مراد الثالث ومحمد الثالث ـ صفية ـ الكونت سقالا ـ موقعة كرزت ـ احمد الاول ـ بعثة انكليزية ـ مراد الرابع ـ الاستيلاء على جورجيا ـ فتنة جنود السباهي ـ شدة السلطان ـ الاستيلاء على بغداد ـ موت مراد الرابع

بلغت السلطنة العثمانية لعهد سليمان شأواً رفيعاً من العز والمنعة وأدركت الغاية من الاتساع وبسطة الرفعة . غير ان اسباباً داخلية وخارجية عملت على تدلي العثمانيين وتدهورهم وانكماش ظلهم (١)

كانت البندقية أول من نازع سلطنة سليمان السيادة والعز الرفيع . وقد جلس على عرش الرجل العظيم بعد وفاته ولده المسمى بحق سليم السكير . ولم يكن من المعقول ان بناء السلطنة الشامخ الذي رفع ابوه قواعده بمساعدة جماعة من أماثل الرجال ينهار على يديه دفعة واحدة. وذلك ان نفراً منهم وفي مقدمتهم الصدر الاعظم صقلي محمد لم يألُ جهداً في السير بالدولة في السبل التي اختطها لهم مولاهم واستاذهم الراحل الكريم . وأخذوا يفكرون في القيام بأمور جسيمة خطيرة ويعدون الكتائب لفتح الفتوح فأرسلوا سنان باشا على رأس جيش لقهر بلاد العرب فتم له ما أراد ودعا خطباء مكة في المنابر « للسلطان الاعظم والخاقان الافخم سلطان البرين والبحرين وصاحب المزارين الاسلاميين الشريفين سليم خان ابن سليمان خان » وأرسلوا أيضاً الى استراخان حملة ـ سيأتي شرحها ـ لم تكن قرينة النصر والظفر فلم يعد من عساكرها الى الاستانة غير ربعهم . ثم تلا ذلك فتح قبرص وانتزاعها من أيدي البنادقة وقد عهد هذا الى منافس من منافسي الصدر الاعظم صقلي وهو رجل يدعى لالا مصطفى كان معروفاً بتهوره وركوبه المراكب الخشنة من الغلظة والقسوة ولم يستول على الجزيرة الا بعد هلاك

(١) راجع كتاب الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده للبستاني ، وأوربا والجامعة الاسلامية لرفيق بك العظم ، وكتاب المعلوم والمجهول للمرحوم ولي الدين بك يكن ، وكتاب زوال السلطنة العثمانية من أوربا للكبتن جرنفل باكر ، وكتاب التصوف والسحر في تركيا للسيدة جارنت

خمسين ألفاً من جنده انتقم لهم من قائد حماتها الابطال المدعو براجادينو بسلخ جلده حياً

على أن السيادة البحرية التي أصابها العثمانيون باستيلائهم على جزيرة قبرص لم تكن لتستمر من غير نزاع. فقد تألف حلف بحري عظيم من البنادقة والاسبانيين وفرسان مالطة وغيرهم وأعد أسطول مؤلف من ٢٠٠ سفينة و٦ ماعونات هائلة وجعل بقيادة الدون جون النمسوي وكان اذ ذاك شاباً لا تزال أخبار اضطهاده لعرب الاندلس ترن في آذان الاوربيين وتطربهم وكان الناس يعدونه أشجع أهل زمانه وفارس عصره وأوانه. ولم يسع الاتراك العثمانيين الا أن يقابلوا هذا الاسطول العظيم بأسطول أكبر منه سفناً وأعز نفراً فحشدوا ٢٤٠ سفينة كبيرة وستين سفينة صغيرة في خليج بتراس وجعلوها بقيادة مؤذن زاده وأولوج علي وغيرهما من أكابر القواد أهل التجربة وأصحاب البصيرة. وفي السابع من اكتوبر عام ١٥٧١ برز الدون جون بسفائنه من خليج ليبانتو وأصلى العثمانيين حرباً وقد جعل سفن القلب على شكل نصف دائرة بقيادة أمير بارمة الشهير وجعل نفسه في المقدمة وجعل الست الماعونات في صدر خط القتال واتخذها ردءا. وكان الترك هم البادئين ففغرت مدافعهم أفواهها غير ان الخسارة العظيمة أصابتهم لان سفائنهم لم تقتحم خط القتال ولم تصل الى حيث كان الدون جون حتى لحقها عطب شديد من الست الماعونات القائمة ردءا للسفن الاوربية في صدر خط القتال. والتحمت سفائن القواد من الطرفين ونشبت معركة يشيب من هولها الولدان مدة ساعتين من الزمان وقتل القائد التركي في آخر الامر وانكفأت سفينته بمن فيها وانكسر القلب العثماني وولت سفن الجناح الايمن الادبار. فاما الجناح الايسر بقيادة أولوج علي فأصاب انتصاراً وكسر دوريا (ابن أخي القائد البحري العظيم المشهور في التاريخ بالاسم عينه) وكاد يستولي على بعض سفن الاعداء لولا انه اسقط في يده اذ شاهد ما حل بقومه من الهزيمة والعطب فلم يسعه الا شق طريق له بين جموع السفن المضطربة الهائجة ولم يعد الى البوسفور بأكثر من أربعين سفينة هي جملة ما سلم من أسطول كبير عظيم. وكانت جملة ما أغرق وأحرق من المراكب التركية أربعاً وتسعين ولم يقل ما أسر عن مائة وثلاثين وخسر الترك من الرجال ٣٠ ألفاً وحرر ١٥٠٠٠ من أرقاء الاوربيين الذين في خدمة الاسطول العثماني

وهذا الانكسار البين الذي لحق بالاساطيل العثمانية كان لا بد يؤثر عاجلاً في

سيادة الدولة البحرية وينتزعها من يدها . غير ان شيئاً من ذلك لم يكن . صحيح ان أثره المعنوي كان عظيما فظهر به ان العثمانيين يمكن ان يقهروا وفي دائرة الامور المستطاعة غلبهم والانتصار عليهم ولكن كان هذا فقط ولم تكن نتيجة معركة ليبانتو لتؤثر في التوزن الدولي البحري في بحر الروم أو تغير الحالة السابقة لها . ولم يكد المتحالفون يخرجون من المعمعان ظافرين حتى تفرقوا وعاد كل فريق الى وطنه وعادت كل طائفة من سفائنهم الى مستقرها ومرساها وأخذوا يطبلون ويزمرون ويقيمون الحفلات والولائم والصلوات ابتهاجاً بما أتاهم الله من النصر المبين على أعدائهم العثمانيين . ثم أخذوا يتشاحنون واختلفوا فيما بينهم على جاري عادتهم . فاما الترك فعادوا من فورهم وساعتهم يلمون شعثهم ويجمعون متفرقهم ويرممون ويصلحون ما أصابه العطب من مراكبهم وأخذوا ينشئون غير ما أحرق وغرق حتى كمل لهم في عدة أشهر أسطول عظيم كونوه بقوة الجبابرة وأفعال السحرة وكانت عدته ٢٥٠ سفينة . فلما رأى البنادقة من العثمانيين هذه الهمة القعساء وانهم عادوا فصاروا أصحاب العز والسلطان في بحر الروم خافوا مغبة ذلك وطفقوا يتوددون الى العثمانيين وعقدوا معهم صلحاً على قاعدة الاعتراف بتملكية السلطان لجزيرة قبرص وقيامهم مع هذا الاعتراف بدفع غرامة حربية باهظة بها عوض على الاتراك نفقة الاستيلاء عليها خير عوض . وكذلك زال أثر معركة ليبانتو السيء من أذهان العثمانيين

وساد السكون بعد ذلك بين البنادقة والعثمانيين مدة ربع قرن من الزمان وكان هذا بفضل نفوذ النساء لا مراعاة لحرمة معاهدات . وكان مراد الثالث الذي خلف أباه سليمان سنة ١٥٧٤ ضعيف الرأي عاطل الذهن غير موفق الى عمل صالح ولا مسوق الى خير فكانت الوظائف لعهده تباع بيعاً ويتولى الامور خساس الناس وأسافل القوم وكان هو نفسه فريسة تأثير جماعة من النساء والحظيات وكان من جملتهن امرأة عرفت بذكائها وحسن رأيها تدعى صفية . كانت صفية هذه من سبي البندقية ومن أسرة بفو الشهيرة وأدركت منزلة عظيمة بين نساء السلطان وجواريه وملكت عليه قلبه فتسلطت على الامور وأخذت بزمام الشؤون فاجرتها على ما يوافق هوى ابناء جلدتها القدماء من البنادقة . فلما مات زوجها وخلفه ابنها محمد الثالث ـ أحد اولاد مراد الثالث وكانوا ١٠٢ قتل منهم ١٩ بأمر أخيهم محمد الثالث لدى تبوئه العرش ـ أصبحت لديه أيضاً صاحبة أمر غير راجع ولها من الامر والنهي ما كان لها أيام ابيه . وكان من اقرب

المقربين اليها رجل يدعى سقالا من أشراف الايطاليين بجنوة كان قد وقع في أسر الترك وهو صغير وكان ابوه الذي يدعى الكونت سقالا قد تزوج من امرأة من سبي الترك فسار الولد في اثر ابيه وتزوج بتركية من حفيدات سليمان القانوني. وتمكن سقالا بما له من المقدرة والمواهب والذكاء مع الحظوة عند والدة السلطان من التدرج في سلم العلياء والتقلب في مناصب الدولة الخطيرة. وفي ١٥٩٦ خدم وطنه الجديد تركيا أجل خدمة وذلك ان جيوش النمسا وترانسلوانيا كانت تتطاحن وتتصارع في معركة هائلة استمرت ثلاثة ايام كوامل وكانت رايات النصر تكاد تخفق على القوى الاوربية وهمَّ السلطان بالهرب من سهل كرزت دفعتين لولا ان قيض الله لنصرة جيوش العثمانيين سقالا هذا على رأس جماعة من فرسان الترك فاقتحم الصفوف وانقض على الاعداء كالصاعقة وما هي الا نصف ساعة حتى ولت عساكر النمسويين الادبار لا تلوي على شيء. وكان أسبقها الى الهرب الارشيدوق والامير حتى اختلط الحابل بالنابل وعظم الهرج وصاروا أخلاطاً تهيم على وجوهها تلتمس النجاة من وجه الترك بعد ان كانوا جيشاً منتظماً يساجلهم الحرب ويكاد يفوز عليهم ويزهم وترك النمسويون ٥٠ الفاً من الجثث الهامدة على الثرى

على ان هذا النصر الذي اوتيه الترك على يد سقالا كان كالغرة البيضاء في الاديم الاسود او كوميض البرق في الظلام الدامس لان العهد كان عهد فتن داخلية وحروب خارجية غير ذات شأن: ثورات حكام وفساد أحكام وفوضى وارتباك واختلال أمر واضطراب حبل. ومما يدل على هبوط الدولة وأفول نجمها وزوال عزها وغروب شمس مجدها انها في عهد السلطان التالي وهو احمد الاول وكان غلاماً لم يتخط الرابعة عشرة عقدت بعد حروب طويلة معاهدة مع النمسا عاملتها بها معاملة النظير بعد ان كانت سيدة والنمسا مسودة تأمر فتسمع وتقول فتتبع. هذا فضلاً عن انها بمقتضاها منعت الجزية المقررة وأصبحت النمسا في حل من الوقوف تجاهها مرفوعة الرأس محترمة الجانب قوية عزيزة بعد ان كانت تابعة ضعيفة ذليلة. نعم صارت تركيا منذ العهد الذي نحن بصدده دولة عادية لا يخيف شبحها ولا يرهب جانبها وتدلت من درجات العز والسيادة الى درك الذلة والضعف بحيث صارت يطمع في املاكها ويعتدى عليها بل كانت اذ ذاك قد بلغت حداً من الضعف ومقداراً من الوهن وبلغت من الاختلال والاعتلال ما كان يمكن معه اقتسامها لو أجمعت الدول الاوربية على ذلك ولم تلههـا

الحروب الاسبانية . نعم كانت دول اوربا في العصر المذكور منصرفة عن الاتحاد على الدولة العثمانية الى مشاكل خاصة بهن وحروب متعلقة بمطامع البعض منهن في البعض الآخر والاكان يكون انتهاب املاكها من الامور الميسورة والحوادث الواقعة ولا سيما ان انكلترة (مع وجود سفير لها منذ عصر اليصابات سنة ١٥٨٣) لم يكن حينئذ في استطاعتها ان تنصر تركيا على اعدائها لو كان اجتمع على اقتسامها جماعة منهم ولم تكن قد دخلت سلطنة الهند في حكمها فلم تكن قد تقررت سياستها المتعلقة بالشرق الادنى بعد تلك السياسة التي ولدتها صيرورة الهند من املاك انكلترا والتي جعلت المصالح الانكليزية والعثمانية في ارتباط . لذلك لا نبالي اذا قلنا ان اقتسام الدولة العثمانية وقد وصلت الى شفا الخراب والدمار كان يمكن ان يتم اذ ذاك ولم يمنع حصوله الا اختلاف دول اوربا وتشاحنها يدلك على صدق ذلك ان السير توماس رو رئيس البعثة الانكليزية في الاستانة في ذلك العهد الف كتاباً عن رحلته الى بلاد الدولة وفيه يقول ان دولة الاتراك العثمانيين كما يلوح له صائرة الى العدم

على ان السكينة عادت فشملت الحدود الشمالية للسلطنة العثمانية وكان امبراطور النمسا اذ ذاك غير غافل عن عظيم الفائدة التي تعود على بلاده اذا هو حافظ على عهود الولاء والصفاء مع الدولة العثمانية ولم يشتغل معها بحرب يلهو بها عن حروب الثلاثين سنة الشهيرة التي كانت تتأجج نيرانها ويستعر اوارها في حدود بلاده الشمالية . كذلك لم يكن في نفوس الترك مطمع الى الاعتداء على النمسا اذ ذاك وكان السلطان الجديد الذي تسنم عرش الخلافة عام ١٦٢٣ باسم مراد الرابع من الامراء الذين يجري في عروقهم دم الشجاعة والنخوة الذي كان يجري في عروق أسلافه السلاطين العظام . غير انه آثر أن يكون مشهد شجاعته وفروسيته ميداناً آخر غير الميدان النمسوي ولذلك عقد مع الامبراطور معاهدة جديدة بها أمن على الحدود التركية الشمالية في النصف الاول من القرن السابع عشر

كان مراد الرابع آخر السلاطين الشجعان المحاربين من سلالة عثمان وقد جعل فارس هدفاً لاطماعه . وقد أصاب العثمانيون لعهد مراد الثالث انتصارات باهرة ثم عقدوا مع الشاه صلحاً سنة ١٥٩٠ وبه أخذ الترك جورجيا وتبريز وبعض العمالات الفارسية الواقعة على السواحل الجنوبية لبحر الخزر. على ان هذه الملحقات لم تمح ذكراها

الاليمة من أذهان الفرس فحاولوا المرة بعد المرة استعادتها وتم لهم ذلك أخيراً بمقتضى معاهدة سنة ١٦١٩ التي جعلت الحد الفاصل بين المملكتين الفارسية والتركية كما كان ايام سليم الاول وهكذا استرد الشاه ما فقد من بلاده وأقاليمه . لذلك عزم مراد الرابع على اعادة فتوحات سلفه وسميه . على ان المصاعب العظيمة قامت تعترض حكمه وتعرقل سيره فانه كان عند تبوئه العرش ولداً لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره وكانت دولته في حاجة ماسة شديدة الى يد قوية تقبض على زمام الامور . فكانت المصائب والثورات تتأجج في كل مكان وكان الفرس منتصرين فائزين وآسيا الصغرى فريسة الفتن والولاة متمردين كلّ يود الاستقلال بما تحت يديه من الاقاليم والبقاع فضلاً عن ان ولايات أفريقية الشمالية الثلاث كانت تكاد تكون مستقلة عن الاستانة في كل شيء . كذلك كانت خزانة الحكومة خاوية على عروشها والمجاعات ناشبة اظفارها بالسكان في كل مكان وأفراد الجنود ووحدات الجيش على شر ما تكون من القحة والتمرد وسوء النظام . واستطاع السلطان الفتى بمعاونة امه القادرة ان ينشر سلطته ونفوذه بنوع ما وسط هذه المخاوف وأمام هاتيك الصعاب وقد اصابه في سبيل ذلك كثير من الشر ولحقه عظيم من الاذى والصغار . ففي السنة التاسعة من حكمه ثارت جنود السباهي واجتمعت جموعهم في ميدان السباق من الاستانة وطلبوا من السلطان اعدام جماعة من الكبراء والعظماء وفي مقدمتهم صدره الاعظم حافظ باشا وقد اقتحموا السراي السلطانية وصاحوا بصوت واحد قائلين نريد رؤوس السبعة عشر الذين طلبنا قتلهم . وكان لا بد للسلطان من أحد أمرين الرضوخ والاذعان لهم أو الاعتزال . وعبثاً حاول تهدئة ثائرتهم واقناعهم بالحجة ولما أعياه الأمر أرسل في طلب الصدر الاعظم ولم يكن حافظ باشا ليتأخر عن تلبية نداء مولاه كما انه لم يجبن أو يحاول فراراً وانما قابل القدر بالرضاء وقال لقد رأيت في المنام رؤيا هذا تأويلها ولست بخائف ولا أنا أجزع من الموت وأبت مكارم أخلاقه واخلاصه الا أن يموت فداء مولاه . غير انه اعتد للدفاع عن نفسه وتقدم لقتال الاشقياء المتمردين ثم وجه الكلام الى السلطان وقال أموت ويموت الوف مثلي فداء مولانا وخليفتنا . وبعد تلاوة بعض آي القرآن الكريم بارح الردهة مشيعاً بدموع وتأوهات مراد ومن معه وقتل حافظ باشا اول من هجم عليه من الاشقياء ثم خر مضرجاً بالدماء مطعوناً سبع عشرة طعنة . على ان السلطان لم يغادر المسرح الذي مثلت عليه تلك الفاجعة من غير صب اللعنات على أولئك القتلة

السفاكين للدماء الزكية فقال اللهم اني اعوذ بك من شر هؤلاء الشياطين الذين لا يخافون بأسك ولا يرهبون بطشك ولا يرعون لمقام خليفة رسول رب العالمين حرمة اللهم فانزل عليهم اللعنات وسلط عليهم من ينتقم لاولئك الابرياء الذين قتلوا على غير ذنب وهلكوا من غير جريرة

والتف حول السلطان جماعة من الاجناد المخلصين استعان بهم على توقيع العقاب الشديد بتلك الجنود الثائرة التي قتلت وزيره الامين حافظ باشا . وقد تخطفت بامره رسل الموت أرواح اولئك العصاة في كل اقليم وبلد وضاقت مياه البوسفور بجثث من ألقي فيه من قتلى السباهي والانكشارية وزاد السلطان جرأة وهيبة في عيون الناس وكان سيد من ينتضي السيف ويسدد السهم فخافته الرعية وملئت قلوب اهل البغي والفساد خوفاً وكان يمر بالشوارع والطرقات فلا يرى أحداً من الاشرار الا استل روحه من بين جنبيه قبل ان يرتد اليه طرفه . وهكذا انتقم لحافظ باشا بدل المرة مرات وارتكزت سلطة مراد على أساس من الرهبة مكين وقد غالى في قسوته وتطرف في شدته فادخل الطائع مع العاصي وحشر الابرياء في زمرة المجرمين وقتل مئات ممن لم يجرموا ولم يذنبوا وكان يأخذ بالظنة وكانت كلما كثرت ضحايا شبهاته كلما زادت شهوته وحبه لسفك الدماء . يقول المؤرخون ان جملة من قتلوا في عهده بامره مائة الف وكان يشرب الخمر فكان كلما شرب منها كلما تعطش الى شرب الدماء . على ان شهوة شرب الخمر وغيرها من الشهوات ما كانت لتفل له عزماً او تقلل له حزماً او تخفف من نعرته الحربية وشجاعته العظيمة الحديدية وكان ينظر في كل أمر من غير كلل ومن غير ملل ويرسل عين عنايته الى سائر اركان الحكومة والادارة فكان يشرف ويهيمن ويرقب الامور فانتشر العدل وساد الامن وحسنت الاحوال واصبح الناس وكأن سليمان القانوني قد بعث فيهم خلقاً جديداً . صحيح انه كان مستبداً بل كان غاشما ولكن الناس آثروا ظلم الواحد على ظلم الجماعة بل آثروا العيش في ظلال حكم الفرد القاهر على العيش في ظلال حكم الاكثرين الهمجي . ولما علم انه قطع دابر اهل الفساد وضرب على ايدي الاشرار غادر الاستانة ليعيد الامن الى نصابه في تخوم السلطنة الاسيوية فاسترد اريوان سنة ١٦٣٥ وعاقب بعض عماله في آسيا الصغرى عقوبات صارمة وقد قضى الاسابيع والشهور ولا وسادة له الا طقم فرسه . وفي سنة ١٦٣٨ زحف على بغداد لاستخلاصها وكانت في ايدي الفرس منذ ايام سليمان القانوني وقاومت

حاميتها مقاومة اليائس وقاتلت قتال المستميت ولكن مراداً كان يقود الجنود بنفسه لحرب أهلها وكان يعمل في حفر الخنادق مثل عامة الجند . ولما أرسل حماة بغداد رجلا قوي الجسم مفتول العضل عظيم القامة ليدعو العثمانيين الى المبارزة انبرى مراد نفسه لمبارزته وما هي الا ساعة نقضت في النضال الشديد حتى شق مراد خصمه نصفين من أم رأسه الى أسفل فكه . ولا يزال زرده السابغ المصنوع من جدائل الحديد والذهب معروضاً للانظار في متحف الآثار بالاستانة شاهد عدل على بأس مراد الرابع العظيم. ولما سقطت بغداد قامت المذابح فيها على ساق وقدم ولم يسلم من حاميتها التي كانت نيفاً وثلاثين ألفاً غير ثلاثمائة ولم يكن حظ سكانها النساء بخير من حظ حماتها المساكين. وعقد الصلح بين الترك والفرس على قاعدة معاهدة سليمان التي ابرمت سنة ١٥٥٥ وردت اريوان الى الشاه ولكن بغداد صارت تابعة للعثمانيين من عصر مراد الرابع الى قبيل وقتنا هذا الحاضر . وعاد مراد الرابع الى الاستانة ودخلها دخول الفاتح العظيم والبطل الكبير وجرى لاستقباله احتفال فخم لم تر الاستانة مثله واستقبلته رعيته بالحفاوة والهتاف الشديد واقيمت على ضفاف البوسفور والقرن الذهبي أنوار الزينة البهيجة وكانت تشق شهب الالعاب النارية جوف الفضاء ويكاد يصل تهليل القوم الى عنان السماء

وفي السنة التالية (سنة ١٦٤٠) توفي مراد الرابع وهو في الثامنة والعشرين من عمره وهو آخر سلطان شجاع محارب من سلالة آل عثمان

الفصل الثاني

سلطة الوزراء ١٦٤٠ — ١٧٥٧

أسرة كبريلي — كبريلي محمد — كبريلي زاده أحمد — موقعة سانت جنتار — مونتكوكولي — الاستيلاء على كريد — موروسيني — الحرب مع بولندة — يوحنا سوبيسكي — موقعتا خوكرم ولمبرج — قره مصطفى — غزوة النمسا — حصار فينا الثاني — نجدة سوبيسكي — انهزام الترك وسلامة فينا — محمد الرابع وحبه اللهو والصيد — معاملة السفراء — موقعة موهكس الثانية — استرداد بودا — موروسيني في اليونان — كبريلي زاده مصطفى — الحرب مع النمسا — موقعة سلانكمن — مصطفى الثاني — موقعة زانته — توسط اللورد باجت — صلح كارلوتز — استيلاء البرنس يوجين على بلغراد — صلح بساروفتز — زوال هيبة تركيا

من موت السلطان مراد الرابع الى قيام السلطان محمود الثاني في القرن التاسع عشر وزمام دولة الاتراك العثمانيين بأيدي جماعة من الوزراء. نعم كان أكثر السلاطين العثمانيين الذين خلفوا مراداً الرابع خاملين ضعفاء ليس في سيرهم وأعمالهم ما تلذ تلاوته ويحسن التحدث به فكانوا رهناء السراي السلطانية حافاء الكاس والطاس عاكفين على ما يضعف البدن ويميت النفس من الموبقات تاركين حبل الامور على غاربها جاعلين زمام الامور في أيدي كبار الموظفين الذين كانوا يسوقون البلاد نحو الشقاء بقدم سريعة أو بطيئة حسب مقدرة كل منهم . وقد أتاح الله للدولة في مفتتح العهد الذي نحن بصدده أسرة البانية شهيرة عرف رجالها بالذكاء والقدرة واشتهروا بالاخلاص فاليهم يرجع فضل توقيف عوامل الانحلال في تركيا حيناً من الزمان وكان أولهم كبريلي محمد اختير لمنصب الصدارة سنة ١٦٥٦ وهو في السبعين من عمره . كان كبريلي محمد شديد البأس صعب المراس قاسي القلب مر الانتقام فنشر الخوف والفزع في كل مكان وعمل على اعادة النظام بين الانام . كان نافذ الرأي بصيراً بالامور له في قلوب الحكام والولاة هيبة وعلى أعمالهم رقابة ولو كانوا في أبعد أطراف المملكة وكان الامر أمره والنهي نهيه في كافة المرافق وسائر الشؤون مدة خمسة أعوام ويقال ان جملة من قضى عليهم كبريلي هذا ٣٦ ألفاً وقد زعم رئيس الجلاذين لعهده ان جملة من قتلهم هو وحده بأمر الوزير أربعة آلاف بمعدل ثلاثة في اليوم الواحد . وقد كان كبريلي محمد معروفاً باعتداله ورفقه قبل ان تسند اليه مهام منصبه الخطير ولكنه

وجد ان الكلمة متفرقة والامور مضطربة وعفريت الخراب والدمار والفوضى منطلقاً يعيث في أرض السلطنة فساداً وعلم أن لا دواء لهذه الادواء الا الشدة والصرامة فمضى في سبيلها غير متردد ولا ملتفت الى الوراء حتى تم له ما يتم لكل مستبد عادل وتوفى سنة ١٦٦١ فخلفه في منصبه ابنه أحمد وكان أبعد منه شهرة وأخلد منه ذكراً . كان كبريلي زاده احمد صدراً أعظم مدة أربع عشرة سنة وهو الكل في الكل أو هو السلطان الحقيقي صاحب الامر النافذ والرأي المطاع وقد أجمع سائر المؤرخين على انه أبرع سياسي أنجبته تركيا في كافة العصور والقرون والازمان وأحذق مدبر للامور برز في دولة آل عثمان . وكان مثل أبيه قوي الارادة شديد الاهتمام باداء الواجبات ولكنه كان أكثر من ابيه علماً واطلاعاً وتثقيفاً وقد تعلم من أبيه ما لم يتعلم أبوه من احد وكان في التنظيم الاداري بارعاً لا يباري ولكنه كان في ميدان الحروب قائداً غير دائم التوفيق

وكان منصب الحكم في المجر وترنسلوانيا محاطاً دائماً بالدسائس فاضطرت تركيا بسبب ذلك الى محاربة النمسا . وكان على كبريلي زاده احمد أن يقود جيشاً عثمانياً الى ضفاف الطونة ففي موقعة سانت جتثار التي نشبت سنة ١٦٦٤ انكسرت كتائبه وظهر عليه ريموند أمير مونتكوكولي وكانت نسبة جيش الاوربيين الى جيش العثمانيين كنسبة واحد الى أربعة . وزاد الترك غروراً انهم رأوا افراد الفصائل الفرنسية من الجيش الاوربي فتياناً مرداً مخنثين فاستهزأوا بهم وقالوا ما عسى أن تفعل هذه البنات معنا . على ان هؤلاء البنات وبقية جيوش مونتكوكولي كانوا خير من يصد الاتراك العثمانيين ويفل جموعهم بحيث بلغت قتلاهم عشرة آلاف واضطر قائدهم الصدر الاعظم أن يعود متعثراً في أذيال الخيبة والفشل

على أن الله عوض الترك في كريت خيراً وذلك انهم وجهوا عليها حملة وجيشاً عظيما وكان صيتهم لا يزال عظيماً في أعمال الحصار . ومع انهم قضوا عشرين عاماً قبل أن يستولوا عليها ويقهروا حاميتها الباسلة من البنادقة بزعامة البطل موروسيني فانهم نجحوا أخيراً سنة ١٦٦٩ في مهمتهم وأصبحت كريت ملكاً لهم وفي السنوات الثلاث الاخيرة اقتحم الترك أسوار عاصمتها المدافعة ٥٦ مرة وبرز حماتها لقتالهم تسعين دفعة وقد بلغت جملة الالغام المستعملة ١٣٠٠ وجملة من قتل من الترك ٣٠ ألفاً ومن البنادقة نحو نصف هذا العدد . هذا واستمرار الترك على هذا الحصار هذه المدة الطويلة من

غير يأس أو تردد أو ضعف أو وهن ومن غير التفات الى كثرة الضحايا وتعاظم الخسائر حتى يدركوا وطرهم ويقضوا لبانتهم مما أكبرهم في عيون الناس وأعاد الخوف والرهبة منهم الى النفوس

على أن النجاح في الاستيلاء على كريت كان كالنمرة البيضاء في الاديم الاسود وقد ظهر للاتراك عدو لدود وخصم عنيد في الشمال . وذلك ان القوازق الاوكرانيين التمسوا معونة الترك حينما أرغمهم ملك بولونيا على التبعية له فانبرت السلطنة للدفاع عنهم وكانت مدة الحرب والخصام قصيرة انتهت بتنزل ملك بولونيا عن مطالبه وقرر على نفسه دفع الجزية وأعطى خصومه فوق ذلك أقليمي بادوليا واوكرانيا . على ان أشراف بولونيا وأعيانها بزعامة حناسوبيسكي القائدالشهير أبوا موافقة الملك على شروط الصلح مع الترك وقالوا بل نقاتلهم الى النهاية وبالفعل عبئت الجيوش العظيمة التي كسرت الاتراك في واقعة خوكزم سنة ١٦٧٣ وموقعة لمبرج سنة ١٦٧٥ على ان العثمانيين كانوا أكثر جلداً من أشراف بولونيا على اطالة الحرب ومع انتصارهم عليهم رضوا بمصافاتهم ومصالحتهم على قاعدة الشروط التي أجابهم اليها ملكهم

وتوفي كبريلي احمد زاده وقد أضاف الى السلطنة أملاكاً جديدة مع ان جيوشها مكسورة . على ان أوكرانيا صارت الى روسيا بعد ذلك بزمان وجيز ولما ضعف شأن أسرة كبريلي وولى الصدارة رجل ضعيف من غير أفرادها زادت سرعة سير السلطنة في طريق الشقاء والانحطاط وحالف الانكسار جيوشها في كل مكان . وكانت العلاقات بين النمسا والمجر في هذا الاوان قد زادت فتوراً وأخذت الاولى منهما تحرش بالثانية وتتشدد في معاملتها وكان الذين يدينون بالمذهب البروتستانتي من أهل المجر يكرهون تنطع اليسوعيين واضطهاد الكاثوليك لمن خالف مذهبهم ولذلك نشأت المؤامرات واقيمت اسواق التعذيب للمتآمرين من المجر على ساق وقدم وكل هذا لم يكن ليزيد المجر الا كراهة في النمسا . وعلم الناس ان أعيان المجر يؤثرون سيادة العثمانيين على سيادة المتنطعين المتشددين من الكاثوليك وكانت حكومة الاستانة على علم تام بما جريات الامور وحقائق الاحوال ونشأ في عاصمة السلطنة حزب حرب قوي طائش الرأي غير بصير بالامور طلب محاربة النمسا والزحف على ڤينا في وقت هو أحسن الاوقات للاعتماد على تعضيد المجر ومؤازرتها . فانتهز الصدر الاعظم الجديد قره مصطفى هذه الفرصة السانحة للقضاء على اسرة الهابسبرج المقوتة قضاء

مبرماً فزحف شمالاً في سنة ١٦٨٢ على رأس جيش عظيم جداً مؤلف من ٤٠٠٠٠٠ عليهم بعض ضباط من الفرنسيين وفيهم مهندسون منهم أرسلهم لويس الرابع عشر لانه كان يكره النمسا كراهة شديدة ويود لو تسحق اسرتها الامبراطورية سحقاً وتذهب ريح النمسا ويمحق أثرها . وظهر كأن النجاح من نصيب الترك وكان الاوربيون كما هي عادتهم على غير استعداد لمقابلة القوة بمثلها وذلك انه كان من عادة أمراء اوربا بمجرد أن يروا الترك عائدين الى بلادهم منصرفين عنهم أن يفرقوا مجتمع جيوشهم ويفصموا عروة كتائبهم ويهملوا شأن حصونهم ومعاقلهم ثم يتفرغون للتشاحن والتطاعن والاختلاف فيما بينهم غير حاسبين لعودة الترك حساباً . ولذلك لم يكن بين أمراء اوربا من اعتد لمقابلتهم وهم قادمون بقيادة قره مصطفى غير كارلوس اللوريني الذي قاتل في موقعة سانت جنتارد برفقة مونتكوكولي . على انه لم يكن ليستطيع أن يحشد أكثر من ٣٣ الف مقاتل وهم قليلون بالنسبة الى جموع الاتراك العثمانيين ولا تكفي بقيتهم (بعد أخذ بعضهم لحراسة المعاقل والحصون) للوقوف في وجه الاعداء برهة من الزمان . وقد كان يكون انتصار الترك محققاً لولا تحالف الامبراطور النمسوي ليوپولد وسوبيسكي الذي جعله البولونيون اذ ذاك ملكا عليهم . وقد تعاهد الملكان وعقدا الخناصر على الاتحاد والعمل معاً وأقسما الايمان المغلظة أن لا ينفرط لها عقد ولا تحل لها رابطة ولو أراد البابا نفسه ذلك وقد أقسما هذه الاقسام أمام مندوب البابا ليكون للقسم صبغة دينية . ولكن تعاهد الملكين على عدم الانصياع لامر البابا اذا أراد التفرقة بينهما مع وجود ممثل له من غرائب التاريخ

وكان حنا سوبيسكي اثناء زحف الصدر الاعظم على فينا لا يزال في بولونيا مع انه قطع العهود على نفسه مع الامبراطور ان يكون في عونه . واذ قنط هذا وحاشيته من معونة محالفهم وقد صار العدو على الابواب هرب الى بافاريا وكانت فينا على شر ما تكون مدينة خرج منها ملكها وتخلى عنها خواصها ضعيفة غير محصنة لا حول لها ولا قوة ولا قبل لها بالثبات امام قوم كالاتراك عرفوا بالمهارة في أعمال الحصار . ولا نبالغ اذا قلنا ان فينا كان يعوزها الآلات اللازمة لترميم حصونها المتهدمة وهذا نهاية في فساد الحال وخيبة الآمال . غير ان أهل فينا قد كتب الله لهم السلامة على يد قرة مصطفى وكسله وتباطئه فانه ضيع فرصة لم تعد بعد وتلكأ في الزحف ولو كان ماضي الامر نافذ العمل صحيح العزم سريع الوثبة لدخل عاصمة الامبراطورية الرومانية

المقدسة على أهون سبيل . ولكن هي الحماقة وعمى البصيرة وفساد الرأي وسوء التدبير يجر على الدول أشأم النتائج ويفقدها فرصاً هيهات ان تعود . وذلك ان أهل فينا أفادهم تأخر قره مصطفى وصاروا في فسحة من الزمن تمكنوا فيها من اتخاذ الاهبة

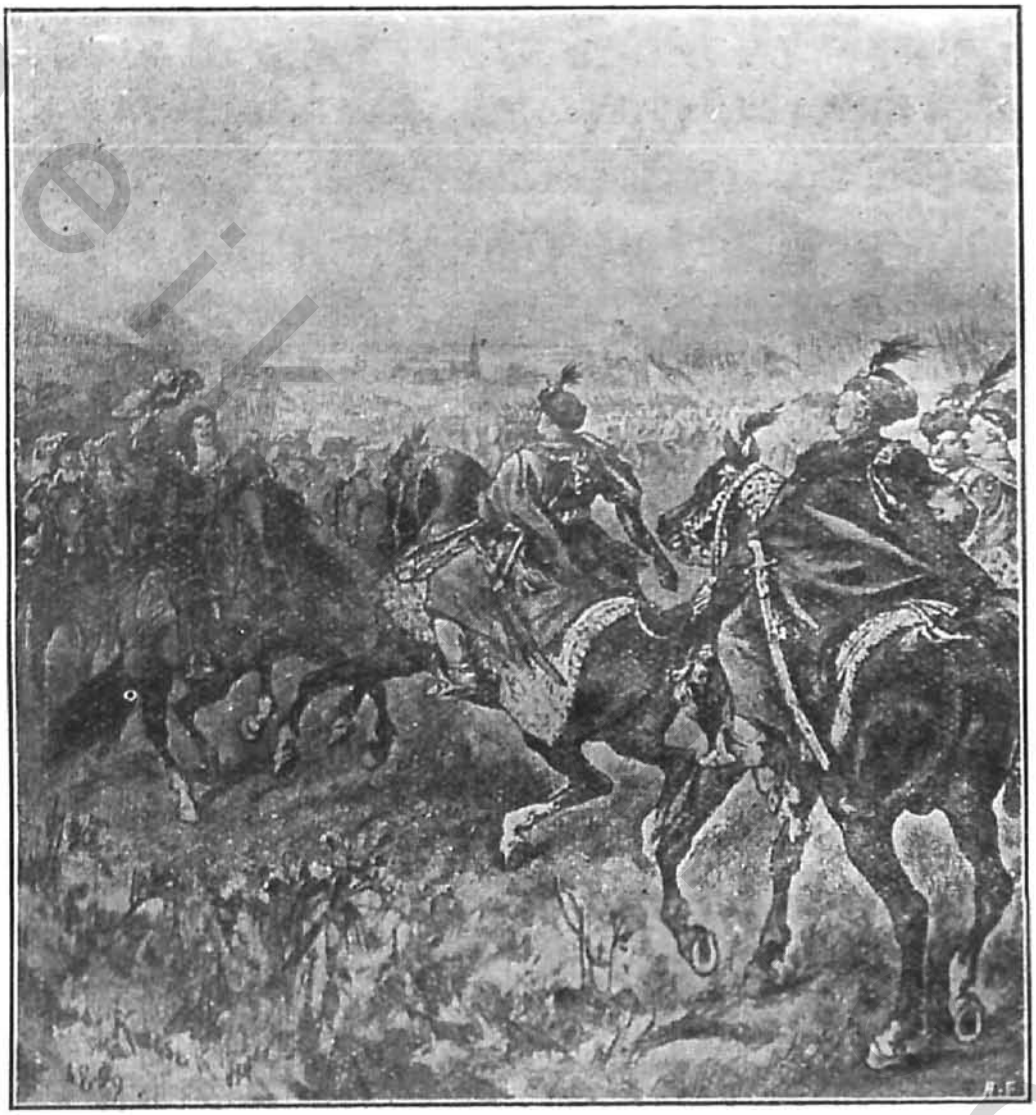

مقابلة ليوبولد امبراطور المانيا وسوبيسكي ملك پولونيا بقرب فينا سنة ١٦٨٣

واعداد العدة للمقاومة بزعامة الكونت ستاهرمبرج الذي نفخ في السكان روح الغيرة والنخوة فانبروا على بكرة أبيهم الى العمل في ترميم الاستحكامات واصلاح الحصون بهمة لا تعرف الملل وعزيمة لا يزعزعها الكلل . والف تلاميذ المدرسة الجامعة واعضاء النقابات الصناعية من انفسهم جيشاً وأخذوا يتدربون على الحركات العسكرية

والفنون الحربية بعزيمة الراغب وهمة الوطني . وكان سكان المدينة عند قدوم الترك قد هبط عددهم الى ٦٠٠٠٠ (لهروب أكثر من نصفهم خوفاً) فمن هؤلاء تقلد السلاح للدفاع عشرون الفاً وقفوا لصد الترك عن عاصمة بلادهم وقصبة مملكتهم وحمايتها مما أصاب ما حولها من القرى والبلاد التي استولى عليها العثمانيون وجعلوها طعمة للسيف والنار . ثم صدرت الاوامر بحرق ارباض فينا حتى لا تكون ردءاً للعدو المهاجم وابتدأ الحصار في الرابع عشر من يوليو وسقطت قرية «ليوبولد ستاد» الواقعة على جزيرة في الطونة قريبة من فينا في يد الترك فاضرموا فيها النيران وأخذ العثمانيون يشددون الهجوم وكلما هجموا صدوا أو اقتربوا ردوا وكان أهل فينا يفسدون على الترك ألغامهم التي كانوا يريدون بها هدم الاسوار . على ان حسن دفاع السكان الشجعان لم يمنع الترك من التقدم قليلاً قليلاً والنجاح شيئاً فشيئاً وكان ستاهرمبرج يرى ويعلم ذلك من مرقبه باعلى كنيسة سان اسطفان وملء قلبه الاسى والاحزان

وكان أهل فينا بما لديهم من السلاح الجيد يردون الترك عن أسوارهم مخذولين غير ان هؤلاء كانوا يتقدمون بفضل الالغام كما ان السكان كانوا فريسة الامراض والاوبئة الناشبة وطعمة القحط الذي جاء في أثر تلك الامراض وعز القوت بحيث صار للسنانير قيمة وكان السعيد من وفق الى اقتناصها بعد مطاردتها على أسطح المنازل . وكان النمسويون يعلمون ان جيش النجدة قادم ولكنهم كانوا يتساءلون فيما بينهم هل تراه يأتي في الوقت المناسب وهل عساه ينجح في رد الترك الذين وان كان عددهم أخذ في التناقص الا انهم كانوا لا يزالون أكثر جنداً وأعز نفراً

وفي السادس من سبتمبر أعلنت السهام النارية اقتراب سوبيسكي فزاد السكان همة ونشاطاً وعظم أملهم بقدوم القائد الشجاع . وكان قد جمع جيشاً من البولونيين والسكسون والنمسويين والبافاريين وغيرهم فكانت جملته خمسة وثمانين الف مقاتل وأسرع الى احتلال موضع يقال له كاهلنبرج به دون غيره يستطيع تخليص المدينة ودفع الاعداء عنها . وكان لافراد جيشه ميزة النشاط بخلاف المائة الالف جندي التي كانت تحت يد الصدر الاعظم فقد كانت وصلت الى حد عظيم من الاعياء والتعب والسآمة بعد مضي شهرين طويلين تحت أسوار فينا معرضين للدغ الجوع وتقلب الاجواء ومتحملين مشقة التعب العظيم والجهد البالغ . وفي العاشر من الشهر سمع أهل المدينة قصف المدافع من صوب كاهلنبرج ولا غرابة فقد كان النضال بين الفريقين قد

قام على ساق وقدم . وهنا لا بد من قلم كاتب ماهر به يمكن الكشف عما كان يخالج نفوس أهل عاصمة الامبراطورية الرومانية المقدسة وقصف المدافع يدوي في آذانهم . لا شك انهم كانوا فريسة الهواجس والمخاوف ساعات عديدة وكيف كان يمكن أن لا يكونوا كذلك وقد كان على الموقعة الدائرة حولهم يتوقف مصير دولتهم ومصير الامبراطورية الرومانية المقدسة ومصير أوربا بل مصير العالم أجمع

فلنترك السكان وقد ركبهم الخوف وساورتهم الهواجس ولننظر فيما اتخذه سوبيسكي من الاجراءآت لرد الاعداء عن المدينة

في شروق الشمس من يوم ١٢ سبتمبر حجبت رأس اكمة كاهلنبرج قطعة من تلك السحب الخريفية التي تبشر بيوم صحو وجو دافىء جميل وقد انحدرت تلك السحابة من رأس الاكمة الى سفحها الى غور الارض الى سطح ماء النهر فغشته كأنها نقاب خفيف . وكان الواقف على رأس الاكمة يرى شواظاً من النار تنبعث من برج كنيسة سان اسطفان وتشق كبد السماء علامة استغاثة السكان واعلاناً لطلبهم المدد والمعونة وتلك الكنيسة العتيقة وما شخص منها تبدو مع ذلك للناظرين خارج المدينة كلما تبددت سحب الضباب التي تغمرها من كل جانب سليمة لم يؤثر فيها ضرب مدافع الاتراك على غير هدى . ولما راق الجو وصفا أديم السماء وبدا كل جزء من أسوار فينا واستحكاماتها رأى الراؤون من الخارج ثغرة عظيمة جداً في الاسوار يمكن أن تدخل منها المدينة فرقة كاملة وعلى مقربة من هذه الثغرة عمال الترك ينقرون الارض ويضعون فيها الالغام ليتسع الخرق وتعظم الثغرة والجنود وراءهم في انتظار الامر بالهجوم والاقتحام وقد خلت المضارب والخيام من الضباط والجنود ولم يبق فيها غير حريمهم وعيالهم لان الكل كانوا قد اصطفوا أمام الاسوار صفوفاً استعداداً للاقتحام كما قلنا وخلفوا وراءهم خلاف حريمهم وعيالهم صفوفاً طويلة من أسرى الاوربيين المصفدين في الاغلال ينتظرون ساعة القضاء عليهم هذا فضلاً عن الالوف المؤلفة من الجمال ودواب الحمل مع رعاتها وسائقيها مما جعل المعسكر العثماني كأنه مدينة عظيمة مضطربة تارة تتخطفها عوامل اليأس وأخرى تدب فيها حواس الآمال . وكنت ترى ايضاً بقرب قواعد اكمتي كاهلنبرج وليوبولدبرج صفوفاً من العساكر العثمانية واقفة لعسكر اوربا تقاتلها دون الهبوط من الممرات والشقوق التي في جوانب الاكمات وتريد منعها من الانحدار على السهل الذي هم فيه . وكان الاوربيون يرتقون السفح

الغربي البعيد ويبلغون قمته ويريدون الانحدار من السفح الآخر الذي تربض بأسفله الترك لهم فلما بلغوا قمة أكمة ليوبولد برج أحاطوا بكنيسة صغيرة عليها وجعلوا منهم شكل نصف دائرة فلما دقت نواقيس صلاة الصبح كف السائرون منهم عن المسير والمرتقون عن الارتقاء ووقف الكل صامتين خاشعين كأن على رؤوسهم الطير وقد أفسحوا امام الكنيسة الصغيرة (كنيسة مار جريف) مكانا وغرسوا فيه علماً أحمر اللون فيه صليب أبيض وكأنهم يحدون علم الترك الاحمر الخافق امام مضرب الصدر الاعظم قره مصطفى. ولما خفق العلم الصليبي امام الجمع المحتشد من الاوربيين ضجوا وصاحوا قائلين نقاتل أعداءنا الترك ونجاهدهم حتى نجليهم عن البلاد. وكان يخيل للرائي كأن الحروب الصليبية القديمة التي نشبت من أجل بيت المقدس قد بعثت من أكفان الماضي ولا عجب فقد كان الاوربيون والعثمانيون الى عهد قريب لا يرون في الحرب الا عملا دينياً يجري بروح تعصبية. ولما صاحوا صيحتهم عادوا الى السكون والصمت ثم فتحت أبواب حصن مجاور للكنيسة وبرز منه موكب فخم عظيم جليل مؤلف من أعيان اوربا وكبراء وجوه الامبراطورية الرومانية وزعماء المروءة واخوان النجدة وأهل نصرة الصليب برزوا كلهم في أحسن ملابسهم الحربية وفي مقدمتهم راهب طويل اللحية مهيب الطلعة حسن البزة وكان العساكر يخرون ركعاً ويرسمون علامة الصليب وهو سائر وسط صفوفهم يبارك فيهم ويدعو لهم بخير ويداه مبسوطتان ذات اليمين وذات اليسار. ولم يكن هذا الرجل الصالح الا «الكابوشين ماركو افيانو» صديق وكاهن الامبراطور وكان معروفاً بتقواه وصلاحه الى ما يقرب من درجة الاولياء المقربين. وكان لا يفارق العساكر في حروبهم ومحنهم وقد حضر هذه الدفعة على جاري عادته يبث في الجنود روح الاعتماد على الله وليرأس لهم صلاة خاشعة. وكان من جملة الامراء السائرين خلفه ثلاثة اتجهت اليهم الانظار مقدمهم ووجيههم رجل قد جاوز الكهولة قوي العضل مفتول الساعدين عظيم القامة مهيب الطلعة خفيف الحركات حسن الاشارات فصيح اللسان مقصوص شعر الرأس على عادة بلاده التي لا بالشرقية ولا بالغربية أسود الشعر والعينين واللحية وكان حسن هيئته وفخامة منظره يدلان على أنه ملك جندي وجندي ملك ولا عجب فهو قاهر العثمانيين وفاتح خوكزم الشهير حنا سوبيسكي

وكان على يساره ابنه الشاب الامير يعقوب على رأسه الخوذة وفي صدره الزرد وفي منطقته السلاح الحديث والقديم وكان على يمين سوبيسكي الهمام العظيم والبطل

الكريم كارلوس اللوريني سلف البيت المالك في بلاد النمسا . وسار وراء هؤلاء الثلاثة جم غفير من كبار أمراء البيوتات الجرمانية . وكان بجوار لويس البادني شاب نحيف الجسم متوسط طول القامة حاد العين نافذ النظرة وهو الامير يوجين دوق سافوا الذي كثر ما قاد الجحافل الى النصر وساق الكتائب الى الظفر وتوج باكاليل المجد رؤوس الجنود وعقد النجاح على الاعلام والبنود . وكان مسلحاً بسيف يقاتل به في المعركة المقبلة هذه التي قتل فيها أخوه . وقد صلى بالناس الكاهن ايفانو المشار اليه ووقف معه على مذبح الكنيسة ملك بولونيا الآنف الذكر وكان يختلط بصوت المرتلين قصف المدافع التركية من بعيد على نحو غريب ودوي عجيب

وبعد ان بارك الحبر الاعظم الملك وجنوده أنعم سوبيسكي على ولده بلقب فارس واجريت الحفلة والصيغ المعتادة في مثل هذا المقام وقد أمره أبوه بالنسج على منوال فارس الفرسان الحاضر في هذا المقام كارلوس اللوريني . ثم وقف ملك بولونيا خطيباً في جنوده البولونية بلسانهم وقال ما معناه :

« أيها الشجعان الاماثل والجنود البواسل والاخوان والافاضل

«في ذلك السهل الذي ترون تجدون أعداءنا وقد بلغوا في العدد أضعافنا وهم اكثر مما كانوا في موقعة خوكزم حيث وطأنا هاماتهم بسنابك الخيل واكتسحنا صفوفهم اكتساح السيل . نعم انا نقاتلهم هنا على ارض أجنبية ولكن اعلموا علم اليقين انا بالحقيقة نقاتلهم على ارض الوطن وانا بدفعهم عن فينا ندفعهم عن وارسو وكراكاو وليس دفاعنا اليوم دفاعاً عن مدينة فذة ومكان واحد ولكنه دفاع عن النصرانية باسرها والمسيحية بحذافيرها وما فينا الا درء المسيحية وحمى النصرانية . الحرب حرب دينية وكفى . قد دعي لجنودنا وسلاحنا بخير ومن مات منا فله الجزاء الاوفى . ألا وانكم تدافعون لا عن ملككم هذا الضعيف الماثل بين ايديكم بل تدافعون عن امر ملك الملوك الباقي فانه بعنايته ولطفه وفق سيركم وسدد خطاكم حتى ارتقيتم هذه الذرى وحتى اصبح الانتصار بارتقائكم هذا المكان في قبضة يدكم . ألا وان عيون الاعداء موجهة لكم فاذا اعتصموا بالوديان فاناشدكم ان تجعلوها قبورهم ومثواهم . هذا وليس عندي من الاوامر غير امر واحد : سيروا في أثري وتعقبوا خطوي فالوقت قد حان للشبان البواسل أن ينعم عليهم بالقاب الفروسية »

وقد اعتد الصدر الاعظم من الجهة الاخرى للواقعة المقبلة على نحو يخالف النحو

الذي اتخاه أعداؤه الاوربيون . فقد زعموا انه قتل الالف الاسير النمسوي صبراً وكانت غالبيتها من النساء اللواتي اتخذهن الترك متاعاً ولما انفضت سوق الذبح أخذ يعبيء رجاله تعبئة الحرب والطعان فعلم حنا سوبيسكي علم اليقين انه غريب عن فنون القيادة بعيد عن المعرفة بأساليب الحرب ورياسة الجنود وتسيير العساكر فامتلأت نفسه ثقة بأنه عما قليل يصيب من النجاح والفلاح ما يصيب مثله أمام مثل قره مصطفى الاحمق. ومرت ساعات عديدة والترك يحاربون حرب الابطال ويقاتلون قتال الرجال لانهم مهما قيل فيهم لا يوصفون بالجبن ولا يعرفون بالوهن والخور والقعود عن مقابلة الاخطار . على ان ثبات الجنود البولونية وحمية العساكر السكسونية والباڤارية وحصافة رأي القائد المدرب والزعيم المحنك سوبيسكي خصوصاً جعلت النصر في جانب أعداء الاتراك العثمانيين وتدفق سيل الجموع الاوربية على معسكر الاجناد العثمانية . فحصل الاضطراب العظيم والفزع الكبير وتكبت هذه الدفعة راية الهلال أعظم نكبة وحمل الصدر الاعظم بين قومه اللائذين بالفرار وكان تارة يبكي بالدمع المتناثر واخرى يتحسر على تعاسة جده العاثر وثالثة يلعن ويندد ويلقي تبعة الانكسار على هذا وذاك . وهكذا تبددت جيوش الصدر الاعظم كما تتبدد الغيوم الرقيقة في اليوم المشمس الشديد . فاما الانكشارية التعساء الذين أهملهم اخوانهم وتركوهم في الخنادق فقد وقعوا في أيدي الاوربيين فقتلوهم صبراً على بكرة أبيهم وكان مما غنمه أعداء الترك اكثر من ٣٠٠ مدفع و ٩٠٠٠ صندوق من الذخائر و ١٠٠٠٠٠ ثور و ٢٥٠٠٠ خيمة ومليون رطل من البارود . وكان جزاء الصدر الاعظم على انهزامه الاعدام لان الترك كانوا كأهل قرطاجة يجازون قوادهم المقهورين الجزاء الاوفى

على النحو السالف البيان فرج الله عن كربة أهل فينا مرة أخرى وسلمت من أيدي العثمانيين ولم تكن لترى بعد ذلك أعلام الترك وبنودهم وخيامهم من مرقب كنيسة القديس اسطفان . هذا وليس من المفيد البحث في حالة فينا وأوربا لو كان الترك قيض لهم الاستيلاء عليها. نعم كان يكون تغير مجرى التاريخ الاوربي أمراً مرجحاً ولكن ماذا كان عسى الامر يكون اذا لم يستطع العثمانيون الاحتفاظ بها وهم ضعفاء وأوربا قوية فيها كثير من مهرة القواد العظام . لو كان الاستيلاء عليها بواسطة محمد الفاتح لكان احتفاظه بها من البديهيات ولو اجتمعت سائر دول الارض على انتزاعها منه على أن محمداً كان في الفترة التي نذكر تاريخها قد مضى على موته قرنان من

الزمان ولم يكن على عرش القسطنطينية اذ ذاك من هو جدير بلبس زرده وانتضاء سيفه. نعم كانت الامة العثمانية في آخر القرن السابع عشر مجدبة من السلاطين المهرة والقواد العظام الذين باستطاعتهم تأديب مونتكوكولي وكارلوس اللوربني والبرنس أوجين ومارلبروه وكان السلطان الذي مضى على جلوسه عند ارتداد قره مصطفى عن فينا خمسة وثلاثون عاماً مفعمة بالحوادث نشيطاً ولكن نشاطه كان في ميادين الصيد والقنص لا في مواطن الطعن والضرب والغزو والفتوح

كان عهد محمد الرابع العظيم الامد (١٦٤٨ — ١٦٧٧) برزخاً بين عهدين : عهد الفتوحات الباهرة والانتصارات العظيمة والتشريعات الادارية والحكومة الجليلة وعهد السلاطين الضعاف الذين كانوا يتقلبون في مهاد الكسل والراحة بالسراي السلطانية. وفيما كانت الجنود العثمانية في ظل أعلامها مشتغلة بفتح كريد كان سلطانهم محمد الرابع يشتغل بقنص الغزلان البرية في حراج الاولمب ولاريسا وطرنوه وكان يسير بمعية السلطان في صيده وقنصه بالاماكن البعيدة المترامية الامراء والقواد والوزراء والسفراء. وهكذا انتقلت حفلات السراي السلطانية ومهرجاناتها وماديها وملاهيها الى سفوح الجبال وأكباد الصحراوات والقفار وكانت تقام الاكشاك في الحراج الانف ولا يترك مشهد من مشاهد الترف ولا واسطة من وسائط الاستمتاع الا نقل اليها بسرعة الجان فمن ردهات غشتها الابسطة والمطرزات الاوربية الى قاعات أنيقة حلتها المزركشات الهندية الى غرف بديعة تزري بقصور البوسفور والاستانة. وكان السلطان محمد الرابع المفتون بالصيد والمناظر الطبيعية الشائقة كثير التنقل بين بروصه وجبال الاولمب الاسيوية وسهول طرواده وسفوح ايدا وضفاف الميندر وارباض ساردس ولكن أعز المواضع وأجمل الجهات وأحبها اليه كان موضع يقال له جامبولي على بعد خمسين ميلاً من شمال أدرنه وآخر يقال له طرنوه . وكان اذا حل بمكان أو ارتحل عنه خرج اليه سكان ١٥ جهة من الجهات المجاورة لان الناس كانت كلفة برؤية المواكب والمهرجانات والاحتفالات التي كانت تقام له على نحو يشبه ما كان يجري في بلاد اليونان القديمة وبلاد الترك. وكانت مواكب أهل الصناعات والحرف حيث يعرض الناس مصنوعاتهم ويقوم الصناع منهم بصناعتها على مرأى من المتفرجين ومسمع من الامور الشيقة والمشاهد الممتعة التي لا تمل العين مشاهدتها والتي يقترن فيها عرض الظريف والحسن باحداث المستملح من الاشارات وتمثيل المضحك والمستغرب من العادات

على ان أهل الاستانة كانوا يكرهون هذا السلطان وقد بلغ رجال حكومته من نفاذ الكلمة حداً جروا به على الدولة المقت والكراهة والانتقاد المر . ففي عهده أهين القنصل الفرنسي أعظم اهانة فسب ووكز وضرب بالنعال وفي عهده طرد مندوب روسيا من حضرة أولياء الامور أفظع طرد فرفس بالارجل حتى ازيح خارج القاعة وفي عهده ضرب مترجم الدولة جملة مرات بالسياط والعصي . وكان وزراء الترك لا يقومون مرحبين بسفراء الدول الاجنبية وكانوا يعاملونهم أسوأ معاملة . ولم تكرم الدولة العثمانية مثوى الاجانب الا منذ القرن التاسع عشر . ولما كان الصدر الاعظم يصر على أن لا يقوم اجلالا لسفير من سفراء الدول وكان في هذا من الاهانة ما فيه لمقام السفير ودولته اهتدى المهتدون الى حل للمسألة فيه رضاء الطرفين وذلك بان يدخل الصدر الاعظم والسفير من بابين متقابلين في وقت واحد فلا يتجشم أحدهما مشقة القيام اجلالا لصاحبه

ولما هزم الترك في فينا لم يشاءوا أن يجلوا عن المجر قبل أن يضربوا ملك بولونيا المغتر بقوته ضربة ساحقة . وذلك انه تبعهم وسار في أثرهم غافلاً عن شجاعتهم التي لا تفارقهم ولكنهم ألقوا عليه درساً قاسياً في باركاني لم ينسه طول حياته . على ان ما أصاب ملك بولونيا علم النمسويين الاحتراس والحذر فتأنوا في حرب الترك واتخذوا الاهبة كل مرة حتى اجلوهم شيئاً فشيئاً عن املاكهم الشمالية . وكان النمسويون يسترجعون المدينة بعد المدينة والمكان في اثر المكان وقت في عضد الترك الخذلان الذي أصابهم في موهكس ذلك المكان الذي شرف قدرهم فيه في الزمن السابق الهمام السلطان سليمان وأخذت منهم مدينة بوده سنة ١٦٨٦ بعد أن كانت تابعة لهم تعترف بسيادتهم ١٤٥ عاماً . وتدفقت سيول الجنود النمسوية على بلاد المجر حتى استولت على بلغراد سنة ١٦٨٨ ثم دخل لويس البادني بلاد البشناق وغزا البنادقة دلماشيا وأخضع حامي كنديا موروسيني بلاد المورة . وفي هذه الحرب نسف البنادقة معبد الباثيون العظيم بأتينا وكان البوزنطيون قد جعلوه كنيسة ثم جعله الترك مستودعاً للبارود . ولم يتمكن الترك من رد غير الروسيين والبولونيين فاما غيرهم فقد امعنوا في بلادهم حتى صارت تركية أوربا الى الضعف

ولما ضاق السلطان ذرعاً بتفاقم الاحوال ولى وجهه شطر أسرة كبريلي عساه يجد من ابنائها من ينشط الى خدمة الدولة كاسلافه العظام فعين كبريلي زاده مصطفى

أخى احمد كبريلي الاشهر صدراً أعظم سنة ١٦٨٩ فشمر عن ساعد الجد وجعل مفتتح اعماله افشاء العدل ونشر الامن بين النصارى من رعايا جلالة السلطان. وهكذا تأجل الى حين هياج الصقالبة والاروام في تركية أوربا . وكان موصوفاً بالعقل وسعة العلم والاطلاع وشديد الاخلاص فكان اذا لم يستطع الافصاح عما بقلبه التزم الصمت فلم يلجأ الى النفاق . وكان مثل اخيه يحسن الحكم والسياسة والادارة ولا يحسن الحرب والقيادة على انه قاد العثمانيين ببسالة ضد اعدائهم النمسويين فرد الاوربيين واستعاد بلغراد وأزاح الحدود العثمانية الى نهر الساف. على انه قتل في موقعة سلانكمن سنة ١٦٩١ وتفرق جيشه شذر مذر . وجلس بعد ذلك في منصب الصدارة العظمى رجلان من رجال أسرته ولكنهما كانا دونه ودون محمد واحمد كبريلي مقدرة ومهارة. على انهم جميعاً اخلصوا الخدمة لدولتهم وملتهم وسلطانهم ولاشك ان الخمسين سنة التي قضوها في ظلال منصبهم الجليل كانت بمثابة مرساة ثقيلة منعت سفينة الدولة من ان يجرفها تيار الحوادث . وفي سنة ١٦٩٥ ذكر السلطان الجديد مصطفى الثاني أعمال أسلافه العظام فهمَّ بالسير في اثرهم والنسج على منوالهم ونفثت فيه آثارهم وأعمالهم روحاً جديدة من النشاط لم يعهدها العثمانيون في سلاطينهم من زمان بعيد.لذلك أخذ على عاتقه مهمة قيادة الجنود ومحاربة النمسويين . فلما رأت رعيته منه ذلك فرحت به واستبشرت ورحبت بتجديد معالم المجد القديم وتكاثرت الجموع التي سارت خلفه في ظلال اللواء العثماني الكريم. على ان الحماس وحده لم يكن كافياً اذ ذاك لاحراز النصر لان البرنس أوجين كان يقود النمسويين وكان الحذق في القيادة غائباً عن ذهن السلطان ومن حوله من الوجوه والاعيان. فكانت موقعة زنتا سنة ١٦٩٧ من المواقع الفاصلة قتل فيها عشرون الفاً من العثمانيين وأغرق عشرة آلاف وهم يولون الادبار . وقد بددت بهذه النكبة أحلام السلطان ولم يعد يفكر في استعادة مجد آل عثمان

وقد توسطت انكلتره في شخص سفيرها في الاستانة اللورد باجت ورضي الباب العالي بتوسطها وكانت النتيجة صلح كارلوفتس وهو صلح عظيم الاهمية في التاريخ التركي . ففي مدينة كارلوفتس اجتمع مندوبو تركيا وروسيا لاول مرة في مجلس سياسي اوربي وفيه قبلت الدولة العثمانية مبدأ تداخل الدول المحايدة في شؤونها ومخاصماتها مع أعدائها . وبمعاهدة كارلوفتس سنة ١٦٩٩ احتفظت النمسا بترانسلوانيا

والمجر الى الشمال من ماروش والغرب من تيس مع غالب سلافونيا واستعادت بولونيا بادوليا وكامنيك واحتفظت البندقية بدلماشيا والمورة وعقدت روسيا هدنة صارت بعد ذلك صلحاً . وبعد ١٧ عاماً نشبت حروب جديدة فاستولى البرنس أوجين على بلغراد وبواسطة معاهدة صلح بساروفتس (سنة ١٧١٨) الذي توسطت فيه انكلتره ايضاً اعترف بحق النمسا في بقية بلاد المجر وصارت حدود الدولة العثمانية من الجهة الشمالية منطبقة على الحدود التي رسمت لها الى ان كانت معاهدة برلين

ومن التاريخ المذكور صارت السلطنة العثمانيـة من الدول التي لا يحسب لها في الحرب حساب وصارت جيوشها لا تخيف كبيرات الدول الاوربية ولا تقيم لها وزناً وذهبت هيبتها من القلوب وانصرفت همة قوادها وساستها لا الى تهديد جيرانها بل الى منع تدفق سيول النمسويين والروسيين الجارفة . بل صارت تركيا مهمة من حيث انها من اكبر العوامل في سير السياسات الدولية وأخذت بعض الدول تدافع عنها في ميدان الحرب ومجالس المفاوضات السياسية وأصبح اهتمام ساسة الترك بايجاد محالفين تتفق مصالحهم مع مصالح الدولة أكبر من اهتمامهم بمقاتلة اعدائهم واتخاذ الاهبة لمقابلتهم في ساحات الوغى . وفي قص حوادث المائة والخمسين سنة الباقية من تاريخ تركيا يدور الحديث على محور تعديات روسيا ووقوف انكلتره بالسيف والقلم في وجه مطامعها كما يدور حول التغييرات الداخلية التي أصابت السلطنة العثمانية مثل انفصال القطر المصري عنها ومجهودات السير ستراتفورد كانج في اصلاح ادارتهـا ونشأة ونمو واستقلال ايالاتها النصرانية وغير ذلك مما نذكره بالاجمال حتى تكون بقية الصحف التالية ختام المقال

الفصل الثالث

نهضة روسيا وحروبها مع الدولة ١٦٩٦ — ١٨١٢

ظهور المسئلة الشرقية وتطورها

أصل الروسيين — نوجفرود — روريق — كيف — تنصر الملكة أولغا — فلادمير الاعظم — موسقو — غارات التتر — باطو في ايجنتز — تتر الرهط الذهبي — اسكندر نوسكي — ايفان الاعظم — العلاقات السياسية بين الدولتين الروسية والعثمانية — أول عهد البوسفور بهجوم الروسيين — ايفان الفظيع — بعثة استراخان — بطرس الاعظم — حماية السلطان لشارل الثاني عشر ملك السويد — الاحاطة ببطرس على نهر البروث — صلح بلغراد — معاهدة فيناوجه — كاترينة العظمى — زيارتها للقريم — حصار أوخاكوف — سواروف — معاهدة ياش — تلست — السير روبرت ادير — ستراتفورد كانتج — معاهدة بوخارست — تأثيرها في ارتداد نابليون عن موسقو

بينما الدولة العثمانية تشب وتترعرع وتملأ العالم فتوحات وتغزو وتمد رواق تسلطها على الاقطار والآفاق في السنين المتعاقبة والاحقاب المتوالية اذ بالشعوب القاطنة في سكثيا وسرماتية — حسب تسمية قدماء اليونان — تأخذ العدة والاهبة لم شعثها وتوحيد قوتها لتناوىء العثمانيين وتمنع تقدمهم . وكانت السهول والبراري المعشوشبة الواقعة على سواحل البحار المتاخمة لاملاك الاتراك من الشمال تحت حكم أمراء عظام مروا بممالكهم بأدوار التطور والارتقاء قبل أن يتصل أرطغرل بسلطان قونية بقرون عديدة . وما زالت هذه الشعوب تشب وتقوى حتى حصل لها من القوة وشدة البأس ما كان فيه الخطر الشديد لعز أبناء عثمان

وتغشى الظلمات التاريخ القديم للاقاليم المشار اليها كما هي العادة ويصف مؤرخو بيزنطية سكانها بالفذارة الشديدة والقسوة المتناهية وارتكاب ضروب الوحشية في حروبهم ويقولون أنهم كانوا يتخذون جماجم قتلى أعدائهم اقداحاً لتناول الشراب . فاما غير مؤرخي بيزنطية فيصفونهم بالدعة ويزعمون أنهم كانوا يعيشون مرتاحي البال في هناء حال وصفاء زمان ويقولون فيهم ما قاله شعراء اليونان الاقدمين وهو أن أهل الشمال في رفاهة ورخاء تمتد بهم الآجال الهنيئة الى أكثر من الف عام . ويقول هذا الفريق من المؤرخين أيضاً أن هؤلاء الاقوام كانوا حسني الشكل يحملون آلات

الطارب لا آلات الحرب والكفاح ولا يعلمون أن من الحديد تتخذ السيوف لقتل النفوس وازهاق الارواح . على أن السياح قلما يعلمون حقيقة الحال في الاراضي الغربية ولذلك فلا بد لنا من الاعتقاد بأن الزوار الاقدمين الذين وطأت أقدامهم البلاد التي عرفت فيما بعد بالبلاد الروسية اما توهموا أن البلاد كما وصفها خيال الشعراء وأرباب الوهم والمبالغة أو انهم التقوا بقوم من أهل البأس والشدة الذين يحملون البلط الثقيلة دفاعاً عن النساء والولدان . فلم يكن سكان روسيا بالوحشية والقذارة التي ذكرها مؤرخو بيزنطية ولم يكونوا بالرفاهة والهناء الذي صورته أقلام فريق غيرهم من المؤرخين والشعراء

وكانت في البراري المعشوشبة وممرات جبال تلك الجهات الشمالية تروح المتاجر وتجيء من زمان بعيد وكان نهر الاتل ـ فولجا ـ أهم واسطة من وسائط الانتقال بين الشرق البعيد ومناطق بحر بلطيق ويتصل الاتل بخليج فنلنده بحيرات ونهيرات فتنساق المتاجر من بحر الخزر الى بحر بلطبق على أهون سبيل ولذلك قامت في أثناء هذا الطريق مدينة نوفجرود فكانت محلاً لالتقاء العروض والمتاجر وصارت عاصمة للدولة الروسية التي تمخض عنها الزمان . ومن السهل تقدير منفعة نهر كنهر الاتل لبلاد كالبلاد الروسية لان مهمته ليست قاصرة على ري اقطار شاسعة وجهات مترامية الاطراف بل هو في ذاته من أصلح الانهار للملاحة فانه بطيء السير سهل الانحدار هادىء التصريف . وما الفرق بين ارتفاع جهات منابعه وجهات مصباته (وطوله ٢٥٠٠ ميل) غير ٦٠٠ قدم . على أن عظم طوله وهدوء تدفقه ايسا السبيين الوحيدين لحسن انتفاع السفن الشراعية قديماً والسفن البخارية حديثاً به في التجارة وذلك لان نظرة واحدة الى الخريطة تكفي لان تريك أن بين مجاريه العليا وبين نهري فولكهوف والدنيبر شقة ضيقة من الارض اليابسة بحيث تصير التجارة سهلة الانتقال من بحر الخزر الى البحرين الاسود والابيض المتوسط

ومنذ أكثر من الف سنة كان سكان هذه المنطقة العظمى موضوع تهديد خطر قبائل الخزر الذين كانوا قد أتوا من بلاد القوقاز للاستيلاء على أملاك المسلمين وكانت قبائل النورمن في غضون ذلك قد غزت سكان المنطقة المحيطة ببحيرة لمن وفرضت عليهم الجزية . وكانت هذه القبائل تسمى قبائل الروس وقائدها يدعى روريق لحق به اخوته سنة ٨٦٢ فكان هو وقومه واخوته سبباً في نشر الامن والسكينة والنظام

بين ربوع الاقوام الذين احتلت بلادهم

وكانت نوفجرود عاصمة لروسيا بعد وصول روريق مدة خمسين عاماً وانفتح بهبوط ذلك الزعيم عهد بطولة وفروسية عظيم

ثم اتخذ ايغور بن روريق مدينة كيف عاصمة له وارتقى فيها عرشاً وظلت قصبة للبلاد وحاضرة عظمى مدة ثلاثة قرون . ثم دخلتها الديانة المسيحية في القرن العاشر وقيل بل دعا اليهـا القديس اندراوس قبل ذلك بدهر طويل . وتسلمت أولغا أرملة ايغور زمام الاحكام بعد وفاة زوجها حتى بلغ ولدها سن الرشد وفي عهدها امتد رواق النصرانية في طول البلاد وعرضها . وفي سنة ٩٥٣ لما انتشر الهدوء والسكينة وامنت أولغا على البلاد من الفتن الداخلية والغارات الاجنبية سافرت عن طريق الدنيبر والبحر الاسود الى القسطنطينية حيث جرت لهـا حفلات التعميد الشائقة وسماها القساوسة هيلانه وكان ذلك برعاية واشراف الامبراطور (قسطنطين بورفيروجنتاس)

أما فلاديمير الاعظم حفيدها فانه تمّد بعد ذلك بثلاثة وثلاثين سنة في مدينة خرسون القريبة من سباستبول وقيل انه كان يحاصر خرسون . فلما استعصت عليه نذر لله أن يعمّد في حوض كنيستها القديمة اذا هو أفلح في الاستيلاء عليها وقد فتحت وبرّ بوعده ولا يزال الى اليوم المكان الذي عمد فيه فلاديمير يزار . وقد أخذ هـذا الملك بناصر المسيحية ـ الدين الجديد ـ فاكثر من بناء الكنائس والمدارس وذكر جبون « ان الناس كانوا يعمدون في مياه الانهر بالالوف وكلهم فرح باعتناق دين رضي باعتناقه الامير فلاديمير وحاشيته من الاشراف » وكان يعتبر العاصي عن التنصر خائناً لبلاده ومولاه

على أن أعقاب فلاديمير لم يشربوا كأس الحكم والسلطة صافياً وسرعان ما صارت المملكة امارات متفرقة يفري البعض منها في أحشاء البعض الآخر وتسيل دماء أمرائها على مذابح الرغبة في الانفراد بالسلطة والنفوذ . هذا الى أن عدوا متاجزاً من الامم المتبربرة لا يفتأ يقاتلهم جميعاً ويصليهم حرباً لا تنقطع نارها ولا يخمد أوارها . وفي القرن الثاني عشر كانت العاصمة الاسمية للبلاد مدينة فلاديمير على نهير محصور بين الاوكا والولجا وكانت (نوفجرود) و(كيف) من أعمر البلاد وأعز القرى وكانت قد تأسست مدينة (موسقو) سنة ١١٤٧

وظلت الامارات الروسية في شقاق وعراك مدة قرن من الزمان . وفيها هي

كذلك اذ هب عليها ريح مداهم من الجنوب الشرقي. وذلك ان داهية القرون وخوف الزمان جنكيزخان كان قد قذف بقسم من جيوشه لالقاء الرعب في قلوب القبائل التركية المخيمة على ضفاف بحر الخزر الغربية . واجتاز جيش الطاغية التتري بلاد جورجيا وتخطى جبال القوقاز حتى اشرف على بطاح روسيا المتاخمة لبحر قزوين . هنالك استقبله أمراء روسيا بجيش جموه لصده ولكنه مزقه شذر مذر على ضفة نهر صغير يصب في بحر ازوف بقرب المدينة المعروفة الآن بماريوبول وأمعن الغزاة في بلاد أعدائهم بعد أن اجتازوا نهر الدون ونشروا الخراب والفزع في سائر الارجاء

وملأ اهل روسيا الاصليين الاعتقاد بأن التتر عما قليل يعودون الى اجتياح بلادهم وما هي الا ١٢ سنة حتى دهمهم جيش آخر من التتر مريع . وذلك ان باطو حفيد جنكيزخان صب على الروسيين سوط عذاب وقذف عليهم بجيش ذبح رجالهم وأشياخهم ونساءهم وأطفالهم ذبح الاغنام ثم جعل قراهم وبيوتهم ومساكنهم طعمة السيف والنار حتى صارت موسقو وفلاديمير اطلالا دارسة يخرج منها دخان الحريق الذي اتى عليها فجعلها أثراً بعد عين . وجمع الروسيون الجيوش لصد الغزاة فما افلحوا وما عادوا بغير الوهن والتكسير ورأت نوفجرود ما أصاب أختيها فوطنت النفس على خراب محقق وفناء اكيد. الا ان باطو لسبب لا يعلمه الا الله لوى عنان جواده وعاد نحو الجنوب الى سهول نهر الدون . وفي السنة التالية ألبس جنوب روسيا لباس الذل والخوف ثم عاد أدراجه . وفي سنة ١٢٤٠ ظهر امام كيف التي انهكتها الحروب الاهلية ولكنها مع ذلك لا تزال مطمح أنظاره ومحل طمعه في الاسلاب والغنائم وما هو الا وقت قليل حتى دكها دكا وجعل قبابها البراقة طعمة النيران وقصورها العظيمة الرفيعة العماد اكواماً من التراب ينعق عليها البوم والغربان . اما سكانها فقد ذبحهم ذبح الشياه ومن سلم منهم من السيف لم يسلم من السلاسل والاغلال وغادرها وليس فيها الا جدران قليلة قائمة بها أثر الحريق شاهد عدل على ما كان لها من عز وشأن في سالف الازمان . وأسرع باطو في السير الى الغرب وبعد أن أصاب انتصاراً باهراً في لينجنتز (سنة ١٢٤١) من أعمال مورافيا عاد الى الجانب الشرقي من نهر الاتل وأسس هناك مدينة سراي وفيها ضرب فسطاطه الذهبي

خمدت انفاس روسيا الفتاة لهذه النكبات المتوالية والغارات المتعاقبة وأصبحت عمالة تترية للتتر عليها خق الطاعة والرضوخ مدة تنيف على مائتي سنة . ومع أن

الارض الموات أصلحت وغرست والمدن المتخربة رممت وعاد شيء من الطمأنينة الى الصدور الا أن يد التتر الثقيلة كانت شديدة الوطأة على أهل روسيا وما فتئوا بين حين وآخر يتوقعون من التتر غزواً جديداً. وكثيراً ما كانت مخيلتهم تمثل لهم عودة أولئك الجبابرة بشر مثل الشر الذي رأوه في وجوههم ايام باغتوهم بقيادة باطو فتطير نفوسهم شعاعاً ويكادون يصعقون حتى من توهم انهم قادمون. على أن نير التتر لم يكن ليبقى على أعناق الروس بالرضاء اليهم والتسليم. فالاسكندر نوسكي البطل الوطني العظيم والامبراطور الشرعي نفخ في صدور قومه روح الثقة والامل بانتصاره على أهل السويد على ضفاف النيوا سنة ١٢٤٠ في الموضع القائمة عليه الان مدينة بطرسبرج. وبين عامي ١٣٧٨ و١٣٨٠ جمع ديمتريوس الرابع جيشاً عظيما لقتال التتر وانتصر عليهم مرتين مع أنه كان عاملا لهم وأميراً من قبلهم ففي موقعة على نهر الدون قتل منهم على ما يقال مائة الف على أن العدو الذي لا تبرأ غلته ولا ينطفىء لهب غيظه وحنقه عاد بالشر على فلاديمير وموسقو سنة ١٣٨١ فحرقها وقتل من موسقو وحدها على ما يقال ٢٤٠٠ ولم يعف التتر عن الروس الا بثمن باهظ

على ان أهمية موسقو زادت على توالي الزمان وفي القرن الثاني انتهز ايفان الثالث ـ العظيم ـ فرصة ضعف تتر روسيا الذي نجم عن حروب تيمور وحاول رفع نيرهم عن مواطنيه. وان حكمه هو بداية عهد جديد في تاريخ روسيا المسيحية الوطنية وذلك انه جمع امارات موسقو ونوفجرود وغيرها ولاحت بشائر توحيد دولة روسية عظيمة. ثم تزوج أميرة من اميرات القسطنطينية وأعلن حقه في عرش بيزنطية باتخاذه شعارها ـ النسر ذا الرأسين ـ مع شعاره الاصلي وهو صورة القديس جرجس والتنين

ونظم ايفان الكبير الامور وأحكم الترتيبات وأجرى العدل وجعل الضرائب على أساس من العدالة مكين وكان التتر اذ ذاك قد انقسموا الى جملة خانات أو امارات فامارة القريم ممتدة بطول نهر الدون وامارة قازان على نهر الاتل وامارة استراخان على المجاري السفلى له وغيرها من الامارات في الشرق. وفي سنة ١٥٩٢ تم الاستيلاء على مدينة سراي ودمرت تدميراً

وكان ايفان في اول الامر على صفاء ووداد مع الدولة العلية وكان بعض التركمان قد ضايقوا تجاراً من المسقوف أتوا اليهم وعاملوهم فلما علم بذلك ايفان الثالث سنة ١٤٩٢ كتب الى بايزيد الثاني واقترح ايجاد الصلات التجارية المتينة بين الدولتين. وبعد

مضي ثلاث سنوات أرسل القيصر أول سفير روسي الى الاستانة

على ان العدوان بين الروس والقسطنطينية قبل استيلاء الاتراك عليها اقدم من هذا وذلك انه في سنة ٨٦٤ ظهر أسطول للروس في القرن الذهبي ولم يرده أهل القسطنطينية على اعقابه الا بصعوبة . وفي سنة ٩٠٦ وصلت الى القسطنطينية جيوش روسية برية وبحرية بقيادة اولج الوصي على ايغور بن روريق وألبست المدينة لباس العذاب والخوف فنهبت واستبيحت وقتل من أهلها خلق كثيرون . وفي سنة ٩٤١ ذهب ايغور نفسه على رأس اسطول واجتاح السواحل وخرب البلاد وقتل كثيراً من سكانها ولم يرده عنها الا النار الاغريقية التي ذاق المسلمون في حروبهم مع اليونان منها الامرين . وفي سنة ٩٧٢ ارسل سوأتوسلاف الاول بعثة حربية اخرى الى القسطنطينية فردها عنها الامبراطور يوحنا زمسكيس الذي دحر الروسيين في البلقان ولكنه قتل قبل أن يرى بعينه ارتداد الاعداء الى بلادهم مهزومين . فمن هنا يرى المطالع ان أطماع الروسيين في المدينة الجميلة الواقعة على البوسفور قديمة العهد جداً وانهم كانوا يحلمون بالاستيلاء عليها قبل أن يستقر فيها الترك بقرون عديدة

زاد نفوذ موسقو وزادت عظمتها وقد أتاح الله لها من الروسيين الوطنيين أمراء حريصين ذوي باع في السياسة يحنون الرؤوس احتراماً وخضوعاً للتتر اذا آنسوا فيهم القوة ورأوا من قومهم ضعفاً حتى اذا سنحت الفرصة لم يتأخروا عن مناجزة عدو بلادهم الحرب وكان هؤلاء الامراء لا يألون جهداً في اجتذاب الكنيسة الارثوذكسية ورجال الدين فضلا عن الاشراف والاعيان ذوي النفوذ في البلاد . وتم لهم أخضاع أهل ليتوانيا المعاندين وصار أعقاب روريق يعرفون باسم « أمراء عامة الروسيين الاكابر » . وفي ١٥٥٢ تم اخضاع التتر القازانيين وحملهم على دفع الجزية وبذلك أعترفت اقاليم مساحتها ٣٧ الف ميل مربع بواسع سلطة وسيادة ايفان الرابع جروزني (الفظيع) الذي حكم نصف قرن كله عز وسؤدد للدولة الروسية

وكان تتر القريم أصعب مراساً وأشد بأساً وأصلب عوداً وكانوا يدفعون الجزية لسلطان العثمانيين ولكنه لم يمد اليهم يد المساعدة في حروبهم مع القيصر وكان الصدر الاعظم صقلي في هذا الوقت يهتم بتحقيق مشروع طالما فكر فيه المفكرون ولم يخرج من حيز الفكر الى دائرة الفعل والتمام . وهذا المشروع عبارة عن ايجاد طريق اتصال مائي بين الاستانة وحدود الفرس لتسهيل الاعمال التجارية والحربية وطريق

نفاذه ان تحفر ترعة بين نهري الدون والولجا وبها تستطيع السفن السفر من الاستانة في البحر الاسود الى بحر ازوف ثم تمخر مياه الدون وتصل بواسطة الترعة الى نهر الولجا ومنه الى بحر قزوين وحدود فارس . وكانت استراخان الواقعة على مصب الولجا والتي لا بد لانجاح المشروع من استيلاء الترك عليها في يد الروسيين اذ ذاك فارسل الصدر الاعظم جيشاً عظيماً الاستيلاء عليها ولكن الروسيين فرقوه شذر مذر رغماً من مساعدة التتر الذين أصابهم أيضاً ما أصاب الترك . وأرسل القيصر الى الاستانة بعثة تشكو من هذا العدوان . ثم نشأت بعد ذلك العلاقات الودية بين الدولتين ولم تكن روسيا اذ ذاك من القوة بحيث تستطيع التهديد والوعيد واغلاظ القول . وفي سنة ١٥٧١ أي بعد أمضاء معاهدة الصلح بين الترك والروسيين أرسل تتر القريم جيوشاً على موسقو فاخذتها عنوة وجعلتها طعمة للنيران . وكان القيصر قبل هذه المصيبة بعام واحد أخذ يعذب رعيته لتوسمه الخيانة في بعض أفرادها فلما هاجم التتر عاصمة بلاده هرب هروباً مخزياً والتمس النجاة في مختبأ بين أفراد شعبه الذي عذبه وأشقاه

وفي أواخر حكم ايفان الفظيع كانت المحبة الظاهرة سائدة بين القيصر وجلالة سلطان العثمانيين فلما انقضى عهده ومات ضربت الفوضى أطنابها في ارجاء الروسيا وتذابح الامراء على العرش فلم تكن روسيا لتستطيع أن تمد نفوذها في الخارج . وبعد أن تأيد امر اسرة رومانوف زادت مسافة الخلف بين الروسيين والاتراك العثمانيين واشتدت عداوتهما وتنافسهما الطبيعيان الدائمان ولاح شبح الحرب المخيف بينهما وكان التتر شجاً في حلق الروس كما كان القوزاق قذى في عين الدولة العلية وقامت حروب صغيرة بين الدولتين في النصف الاخير من القرن السابع عشر . ففي سنة ١٦٩٦ استولى بطرس الاكبر على أزوف وأوطأ الروسيين سواحل البحر الاسود . على أن صلح كارلوتز ثبط همة الاتراك فلم يبدوا المقاومة اللائقة بهم وتأيد السلام بين الدولتين مدة ثلاثين سنة بصلح أبرم بينهما سنة ١٧٠٠ على أن القيصر في غضون ذلك كان لا يفتر عن تحصين أزوف فقابل العثمانيون عمله باقامة حصون بنى قلعة . وشغل بطرس الاكبر عن الكيد لتركيا والاتراك ما دهمه من قتال وعداوة شارل الثاني عشر ملك السويد فلما اندحر هذا الاخير وفر من وجه الروس التجأ الى حمى العثمانيين فاجاروه واكرموا مثواه وأبى السلطان احمد تسليمه لبطرس فشهر هذا الحرب على الدولة غير

مراع حرمة معاهدة صلح الثلاثين سنة . غير انه وجد نفسه وقد أحاط به العثمانيون من كل جانب بجوار نهر البروث ووقع مؤسس عظمة روسيا ورافع لواء مجدها في قبضة قائد جيوش العثمانيين الصدر الاعظم . على أن ذكاء كترينا وحسن حيلتها وما قدمته من الاموال الطائلة للقائد الخائن أخرج زوجها من المأزق الحرج الذي وجد فيه وسلمت روسيا كلها بسلامة بطرس وفك الحصار عنه . وكانت معاهدات الصلح بين الدولتين متعددة ومتوالية . فالتي أبرمت بينهما سنة ١٧١١ تلتها أخرى سنة ١٧٢٠ ثم تمالأ القيصر والسلطان على الكيد لفارس وأرغماها على عقد صلح رابح لهما

مضت سنوات قلائل بعد هذا ثم ساد في أوربا أعتقاد عام بان شمس الدولة العثمانية قد آذنت بالمغيب وانها في اخريات ايامها وكان مرور الزمن لا يزيد هذا الاعتقاد الا رسوخاً . وليس أدل على ثبوت هذا الاعتقاد في أذهان الساسة الاوربيين من تصريح نقولا قيصر روسيا سنة ١٨٤٤ اذ قال للسير هاملتون سيمور في عرض كلامه عن انحلال السلطنة التركية : ها نحن أولاء نشهد احتضار الرجل العليل يعني تركيا . وهو تصريح جاء في أوان كان الرأي العام الاوربي يقول فيه بامكان طرد العثمانيين من القارة بقضهم وقضيضهم واقتسام أملاكهم بين الدول المسيحية

على أن اذلال بطرس الاكبر على ضفاف البروث لم يبرح عن أذهان الروسيين . وكان قياصرة ورعايا روسيا يلتهبون غيظاً وحقداً على الاتراك كلما ذكروا هذا العار . فبطرس الثاني جمع الجموع واتخذ العدة لشن الغارة عليهم ولكن المنية ما امهلته (سنة ١٧٢٧) وأخرت الاحوال تمام انفاذ مشروعه الخطير نحو الدولة الى سنة ١٧٣٦ وفي (مارس) تحركت الجيوش الروسية بأمر الملكة حنة للانتقام من العثمانيين وختم الحرب التي حاولت الدولتان التخلص منها جملة مرات بصلح بلغراد سنة ١٧٣٩ ولكن الدولة الروسية لم تشف غليلها كل الشفاء ولم تنقع غلتها كل النقع لان مواد الصلح لم تكن كافية لاذلال آل عثمان حسب رأيها

ومضت تسع وعشرون سنة ثم عاد العدوان بين الدولتين الى ما كان عليه . ففي سنة ١٧٦٨ سخط الرأي العام في الاستانة سخطاً شديداً على روسيا لاحتلالها بولونيا وسعي قيصرتها كاترينة الثانية في اجلاس خليلها بونياتوسكي ملكا على عرش هذه المملكة التعسة التي انتهت دسائس الروسيا فيها باقتسامها . وشبت الحرب بين الدولتين والسلطان على غير عدة وأظهر قواد الفريقين المتحاربين — الا القائد الروسي

رومیانزوف ـ جهلاً وعدم اكتراث فلم يكن من مظاهر الحرب ما يسترعي الاهتمام ويسترعي الانظار غير ظهور الاسطول الروسي على سواحل اليونان بقيادة ضباط من الانكليز وحسن دفاع الترك عن ساسترة سنة ١٧٧٣ وختم صلح قينارجه المنعقد في الحادي والعشرين من يوليو فصول هـذه الحرب . ويلاحظ أن الروسيين اختاروا الحادي والعشرين من يوليو لمحو أثر عار صلح البروث اذ كان في اليوم عينه. وكسبت الروسيا بهذا الصلح مزايا عظيمة اذ اعترف فيـه باستقلال خانات القرم وولايات الدانوب ومع أنها تنازلت عما فتحته استبقت حصونها على البحرين الاسود وأزوف . وكان صلح قينارجه فاتحة انحلال السلطنة وهو أمر كان يرجوه الصقالبة ويسعون له بما أوتوا من قوة . وسمت كاترينة احد أحفادها قسطنطين وكتبت على أحد أبواب موسقو الطريق الى القسطنطينية وكل هذا معناه في رأيها ان الاستيلاء على الاستانة امر سهل المنال

وتظهر علامات تطور المسألة الشرقية ـ تلك المسألة الدولية الهامة ـ في ثنايا معاهدات ياش وبكرش واقريمان وادرنه . وكان الترك قد منحوا الاستقلال بمقتضى معاهدة قينارجة وتعهدت روسيا ان لا تتدخل في شؤونهم على ان الامبراطورة كانت عازمة على سلب أهل القرم استقلالهم قبل أن يجف مداد المعاهدة التي بها قررت على نفسها احترام ذلك . ففي سنة ١٧٨٣ أعلنت ضم القرم الى روسيا وهاجت الاستانة وماجت من جراء ذلك . وكانت انكلترا اذ ذاك لا تحب أغضاب روسيا لـكراهتها فرنسا فكان السلطان من غير عضد واضطرته غير الايام أن يرضى مكرهاً بما فعلته روسيا

وفي سـنة ١٧٨٧ زارت كاترينة أملاكها الجديدة برفقة الامبراطور النمسوي يوسف وكتبت كتابة نخمة على أحد ابواب خرسون مؤداها : هذا الباب يفضي الى مدينة بيزنطية . فلما سمع الاترك بذلك ثارت ثائرتهم ولم يستطيعوا كتمان غيظهم وأعلنوا الحرب على روسيا وكانوا هذه الدفعة أيضاً على غير اهبة واستعداد . وفي ديسمبر سنة ١٧٨٨ حدث حصار أوخاكوف وكانت عظيمة التحصين ويظن ان باستطاعة حاميتها رد الروسيين عن الافلاق والبغدان . غير ان الجنود الروسـية التهبت غيظاً وكراهة للاتراك وشوقاً لقتالهم بعد ان أراها قوادها ما فعل الاعداء بسكان قرية مجاورة هنالك شددوا الحصار واستماتوا في القتال حتى ارتقوا الاسوار وأذاقوا العثمانيين البوار

وألحقوا بهم الدمار وألبسوهم لباس الذل والعار . ثم انهم بعد دخول المدينة انطلقوا كالوحوش الضارية والسباع الجائعة والسيول المتدفقة فقتلوا ونهبوا وسرقوا ومثلوا وروووا الثرى بدماء سكان المدينة المساكين الذين جرى عليهم مدة ثلاثة أيام كاملة ما تقشعر منه الابدان وما يفزع منه الانسان ويستغيث من هوله الثقلان ولا عجب فلم يبق من سكان المدينة البالغ عددهم ٤٠ ٠٠٠ غير ٣٠٠ من النساء والاطفال

وفي السنة التالية أمر القائد الروسي سواروف الذي تنسب اليه فظائع اوخاكوف بالتقدم لحصار قلعة اسماعيل القائمة على دال الطونة كانها جبهة الاسد أو عقاب الجو وكانت لا تبعد عن ساحل البحر الاسود باكثر من اربعين ميلاً . واستولى الروسيون عليها بمهاجمتها ليلاً ولكنهم بعد ان دخلوها علموا ان مهمتهم لم تنته بعد وانهم لا بد يصطلون نار حرب لا تذكر بجانبها الحرب التي ذاقوها وهم خارج الاسوار . وذلك ان شوارع المدينة كانت كالجمر المتقد فكان كل منزل معتملاً وكل طريق ميدان قتال فظيع وجرت المذابح الهائلة طول اليوم وجرى تيار الدماء تحت أقدام المتذابحين وقد أنستهم الوحشية انهم اخوان في الانسانية . وكان سكان المدينة المساكين يذبحون ذبح الاغنام وليس للروسيين أكباد تحس وقلوب تشفق حتى قتل في الثلاثة الايام الالوف

وختم صلح ياش المؤرخ في يناير سنة ١٧٩٢ فصول هذه المأساة ومن الغريب ان الروسيين استهلوه « باسم الله » كما هي العادة وتعهدوا بمراعاة حقوق الصداقة والجوار ! ؟ وان يعودوا الى مصافاة العثمانيين بعد ان كدرتها خلافات تافهة !! ثم ختموا اكاذيبهم بأنهم يحترمون هذا العهد الى الابد

وكان الروسيون قد نجحوا في حمل الترك على الاعتراف لهم بحق الوقوف موقف المدافع عن نصارى الدولة العثمانية . كان ذلك في شروط معاهدة قينارجة (١٧٧٤) . فلما وضعت شروط معاهدة ياش (١٧٩١) حرصت كاترينة على وضع شرط يتعلق بتأييد الحق المذكور . وكانت لا تقل عن بطرس في انتهاز كل فرصة تؤول الى اشهارها بالوقوف موقف المدافع عن مسيحيي السلطنة العثمانية لعلمها ان من هذا يأتي الخلاف واتحال الاعذار لشهر الحرب على الاتراك العثمانيين . على ان كاترينة الثانية كانت دائماً لا تكاد توقع شروط الصلح حتى تتأهب للحرب والاعتداء ولا تؤكد الصداقة الا وهي توطن النفس على الكيد للدولة بالليل والنهار . فلم يكد يجف مداد معاهدة ياش حتى كانت الاستعدادات قائمة على ساق وقدم للقيام باشأم عمل وتهيء اكبر خطر

يهدد العثمانيين . نعم كانت روسيا تعد العدة لقطع دابر الاتراك واستئصال شأفتهم دفعة واحدة وفوجىء الناس بخبر موت أصل بلاء وعلة شقاء السلطنة التركية كاترينة الثانية وكان ذلك في نوفمبر سنة ١٧٩٦

على ان موت كاترينة لم يوقف الاعتداء على العثمانيين الا هنيهة فالروسيون انتهزوا أول فرصة سانحة وزحفوا على الافلاق والبغدان سنة ١٨٠٦ من غير اعلان حرب. فلما سمع الاتراك بذلك عرتهم دهشة وحيرة وثارت ثائرة غضبهم وحنقهم من تعديات هذه العدوة اللدودة وأخذوا يحشدون الجيوش لمقاومة الروس فلم يفلحوا وما عملوا عملاً يذكر . وكان في غضون ذلك قد تقابل قيصر الروس ونابليون بونابرت امبراطور الفرنسيين في تلست (١٨٠٧) واتفق الاثنان على ايجاد الالفة والوداد والصفاء بين بلاديهما وان يكونا خليلين متحابين وصديقين وفيين وان يبقى الوئام ويدوم الاخلاص بين دولتيهما الى ابد الآبدين ودهر الداهرين [1] ثم أجاز نابليون للاسكندر أن يقاسمه السلطنة العثمانية ولاجل أن يضللا بالرأي العام في أوربا نشرا في الناس صورة اتفاقهما وفيه اعلنا مسارعة روسيا الى اخلاء الافلاق والبغدان وتظاهر القيصر باصدار الاوامر في هذا المعنى الى جيوشه . وكانت النمسا في غضون ذلك منهمكة بحرب بونابرت وجرت موقعة وجرم وصلح شونبرون وفيه قضى على آمالها فاصبحت الروسيا لا تخشى معارضتها وخلا الجو لها لتكيد لتركيا وتعمل على سحقها

على ان عاملاً جديداً ظهر في أفق السياسة بالاستانة وتغير به مجرى الحوادث . وذلك ان انكلترا كانت في الزمن السابق مقيدة بمعاهدة روسية فكانت لذلك على غير وفاق مع السلطنة . فلما تعانق القيصر ونابليون في تلست أصبحت انكلتره في حل من كسر قيود محالفتها مع روسيا ولذلك سعى السير روبرت أدير في امضاء صلح الدردنيل سنة ١٨٠٩ وغادر السفارة الانكليزية في الاستانة وخلفه فيها سفيراً للانكليز لدى العثمانيين شاب لا يتجاوز ٢٣ سنة يدعى ستراتفورد كانتج وكان على صغر سنه وقلة تجاربه وعدم موالاة وزارة خارجية انكلتره له بالارشادات والاوامر لا يألو جهداً ولا يدخر وسعاً في احباط دسائس الفرنسيين وقد نجح في ذلك . وكان قصد نابليون الحقيقي اضعاف روسيا باسلاس قياد تعديها على تركيا حتى اذا استنزفت قواها

(١) ذلك لم يكن اكثر من خمسة أعوام !

في الحروب التركية ضعفت فكانت لقمة سائغة له يزدردها . وكان يمني النمسا بأخذ حصة من املاك تركيا وهو مع ذلك يهدد العثمانيين ويتوعدهم توعد القادر الذي أرهب أوربا وملأها رعباً وسطوة اذا هم سمعوا نصائح انكلتره وأتمروا باوامرها مع أنها الدولة التي قامت أدلة التاريخ على انها غالباً خير من يقف موقف المدافع عن حقوق الشعوب المظلومة والدول المهضومة وانها احيانا نصير البؤساء وعون الضعفاء . وكان يتظاهر أيضاً بحب العثمانيين ويغريهم بحسن الدفاع عن سلطنتهم فكان مخادعاً محتالا يلبس امام كل دولة لبوساً من الرياء جديداً وظهر في بادىء الامر كأن النجاح حليف مكره وقرين دهائه وان العثمانيين لا يمكن ان يتخلوا عن نصحه وارشاده

على أن عبقرية كانتج ظهرت باجلى مظاهرها وانتصر حذقه السياسي على دهاء نابليون في ميدان السياسة بالاستانة . وكان الذكاء وحسن الحيلة وسداد الرأي هو كل ما يملك لان دولته لم يكن باستطاعتها اذ ذاك أن تمد له يد المساعدة بالجيوش البرية والسفائن الحربية . على ان انتصاره ذلك الانتصار الباهر في معارك السياسة بدوائر الحكومة التركية ونجاحه في تسيير دفة الامور على ما يريد ويرغب انما كان سببه حسن بيانه وقوة حجته ودقة تصويره لاطماع نابليون في بلاد الدولة وبديع ذكره لاتفاقات الفرنسيين المتعلقة بكيفية انتهاب أملاك المسلمين مع تجسيمه مخاوف الوزراء العثمانيين وتكراره اسداء النصح واتخاذ الاهبة لرد كيد نابليون في نحره . بكل هذه الوسائل استطاع السفير الانكليزي الشاب أن يوجه تيار السياسة التركية الى الجهة التي تنفع دولته وتخدم حكومته حتى حمل الباب العالي على امضاء صلح مع الروسيا ولو بتضحية بعض الاقاليم . وهكذا أمضيت معاهدة بوخارست (بكرش) في مايو سنة ١٨١٢ وتعدلت بموجبها الحدود بين روسيا وتركيا فصارت تنطبق على نهر البروث

هذا ولا شك أن نصحه للدولة بامضاء شروط هذا الصلح كان في مصلحتها لانها أنهت حرباً كانت تعظم ويلاتها عليها وتتكاثر خسائرها منها كلما امتد الزمان. وكذلك كان هذا الصلح مفيداً للسياسة الدولية وسلامة وحرية أوربا لان أضعاف روسيا كان يؤدي الى تعاظم الخطر من نابليون فيبيت من غير منازع قوي وليس له من يوقف أطماعه في أوربا وغيرها عند حد اذا كانت روسيا خائرة القوى واهية البأس . هذا هو سر اهتمام السفير بحمل تركيا على امضاء شروط الصلح مع الروسيين حتى ينصرفوا لقتال الفرنسيين الزاحفين على بلادهم في الوقت المناسب . هذا ومن علم أن

تحطيم الجيش الفرنسي المرتد عن موسقو انما كان بانقضاض الروسيين بقيادة شيكالوف (وكانوا في حرب تركيا الآنف الذكر) عليه على أهمية سعي السفير الانكليزي في الاستانة فاليه وحده يرجع فضل زعزعة قوة نابليون الذي سهل على الحكومة الانكليزية بعد ذلك أن تستعد لضربه الضربة القاضية

obeikandl.com